موسوعة لبنان



تاريخ، سياسة وحضارة

لبنان والفتح العربي

لبنان

تاريخ سياسة وحضارة

بين الأمس واليوم

الجزء الخامس

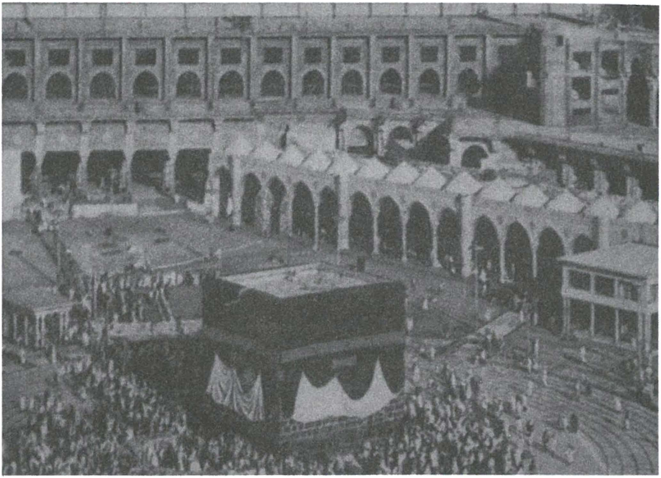
لبنان والفتح العربي

باتريسيا صوما

الفصل الأول

لبنان والدولة الأموية

الإسلام وانطلاقة الفتح



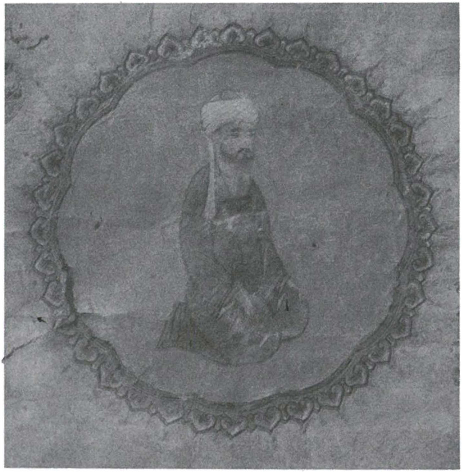
الكعبة وفيها الحجر الأسود

كان العرب في الجزيرة قبل الإسلام وثنيين يعبدون الأصنام ويجهلون الإله الواحد، من هنا تسميتهم بالجاهلية. وكانوا موزعين بين بدو وحضر. أهم مدنهم كانت مكة مركز التجارة ويثرب مركز الصناعة. وفي ٢٠ نيسان سنة ٥٧١ ولد في مكة طفل في قبيلة قريش هو النبي محمد، وعندما شبّ راح يدعو قومه إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام والإيمان بالإله الواحد.

لقيت دعوته في البداية عثرات كثيرة بين قومه الوثنيين فاضطرّ الى هجر مكة

والالتجاء إلى يثرب، وقد تمت الهجرة سنة ٦٢٢ ميلادية وهي بداية التقويم الهجري الذي يؤرّخ به المسلمون.

وما لبثت الدعوة أن انتشرت واعتنقها الكثيرون، واستطاع النبي العربي محمد أن يؤسس دين الإسلام فالتفّ حوله الأنصار حتى تمكن من الرجوع على رأسهم إلى مكة ظافراً سنة ٦٢٩م. / ٧هـ. فحطم الأصنام وألغى عبادة الأوثان وأقام الإسلام على أنقاضها.



الصلاة: مُنمنمة فارسية من القرن السادس عشر

في العام ٦٣٢م. / ١٠هـ. توفي النبي محمد، وبعد سنة واحدة من وفاته أنجزت جميع الاستعدادات لغزو البلدان المجاورة فكانت «حروب الردة» التي هدفت إلى ضمّ القبائل العربية الوثنية تحت لواء الإسلام، فانضوت كل القبائل العربية المجاورة تحت لواء الدين الجديد وتوحدت في عهد الخليفة الأول أبي بكر (٦٣٢ . ٦٣٤) فلم يبق أمام المسلمين إلا أن يتجهوا نحو بلاد جديدة لنشر دينهم.

وما إن مضى عام على وفاة النبي حتى كان هنالك ثلاث سرايا تتجه شمالاً من مكة سنة ٦٣٣م. / ١١هـ. برئاسة عمرو بن العاص ويزيد بن أبي سفيان بمعاونة أخيه معاوية مؤسس الدولة الأموية في دمشق. وقد سار عمرو بمحاذاة الساحل إلى العقبة وسار يزيد ومعاوية في طريق نبوك معان (الأردن).

وقد أمضى العرب ثلاث سنوات وهم يحتلون المناطق الأردنية والفلسطينية والسورية قبل ان يصلوا الى المناطق اللبنانية بعد أن تأكد لهم ضعف الامبراطورية البيزنطية. وكانت معركة اليرموك (٦٣٦م / ١٤هـ.) حاسمة إذ وضعت حداً نهائياً للسيطرة البيزنطية في المنطقة.

وتولّى ثلاثة من القادة المسلمين فتح المناطق اللبنانية هم: أبو عبيدة الجراح، يزيد بن أبي سفيان بمعاونة أخيه معاوية وخالد بن الوليد.

فتح البقاع

وكان على أبي عبيدة الجراح أن يحتل البقاع سنة ٦٣٥ لأن البقاع يشكل الطريق الطبيعية لمرور الجيوش من الشمال في سوريا إلى الجنوب في فلسطين، خصوصا عندما وردت أخبار الى القيادة العربية أن هرقل يهيّىء جيشاً كبيراً لاستعادة البلاد.

وفيما كان المسلمون يحاصرون دمشق وصلت نجدة من جيش الروم في أنطاكية الى بعلبك لمساعدة اهل دمشق، وما ان دخلوا بعلبك حتى علموا بسقوط دمشق بيد المسلمين فلبثوا مقيمين في بعلبك بانتظار تعليمات الامبراطور هرقل.

وكان أبو عبيدة الجراح، القائد العام للحملة، في منازلته لدمشق أمر عمراً بن العاص ان يسير عبر الأردن إلى فلسطين، فخرج عمرو فَوَاقَعَ أهل الاردن وفلسطين وأقام عليهم القيامة وضيق عليهم أشد التضييق حتى تضاعف رعبهم وخوفهم على مدنهم، وعندما وصلتهم أخبار سقوط دمشق بعثوا الى هرقل وهو في أنطاكية لينجدهم، فأرسل إلى الجيش الذي كان يرابط في بعلبك ليخرج الى فلسطين.

لقد شعر عمرو بن العاص بخطورة الوضع عندما رأى تجمع الروم في انحاء البلاد وتصميمهم على التصدي لقواته ولذا بعث الى أبي عبيدة يطلعه على خطورة الموقف.

وكان أبو عبيدة على نية الخروج لمنازلة حمص حتى وصله كتاب عمرو، فاستشار أصحابه في ما يفعل، فأشار عليه يزيد بن أبي سفيان بإمداد عمرِو بالجند والثبات على قتالهم، وأن يقيم أبو عبيدة في مكانه فلا يقصد حمص. ولكن خالداً أشار عليه أن ينتظر ما سيقوم به الجيش الذي في بعلبك وقال له: «فإن هم خرجوا منها وساروا إلى إخواننا سِرْتَ إلى إخوانك فلقيتهم بجماعة الناس، وإن هم أقاموا

ولم يبرحوا أمددت عمراً، وأنفذت الى هؤلاء من يقاتلهم، وأقمت انت بمكانك...».

فبعث أبو عبيدة بشرحبيل للحاق بعمرى وطمأنه بأنه سوف يبعث الى بعلبك من يلهي الجيش المرابط فيها عن الخروج منها. وعَزَمَ أبو عبيدة أن يخرج بنفسه الى بعلبك لكن خالداً تقدّم لمنازلتها على رأس خمسة آلاف فارس بعد أن أوصاه أبو عبيدة: «... يا خالد إني أوصيك بتقوى الله، وإذا أنت لقيت القوم فلا تناظرهم، ولا تصاولهم في حصونهم، ولا تذرهم يأكلون ويشربون وينتظرون أن تأتيهم إمدادهم، فإذا لقيتهم فقاتلهم، فإنك إن هزمتهم انقطع رجاؤهم وسقط في خَلَدهم، وساء ظنهم، وان احتجت الى مَدَدٍ فأعلمني حتى يأتيك من المدد، وإن احتجت أن آتيك بنفسي أتيتك إن شاء الله...».

وقبل أن يصل خالد الى بعلبك كان الامبراطور هرقل قد أرسل الى الجيش الموجود فيها يأمره باللحاق بالروم المحاصرين في بيسان، فخرج الجيش ومعه جمع وفير من أهالي بعلبك ممن هم على دينهم، وانضم إليهم عدد وفير من نصارى حمص.

وعندما وافى خالد بعلبك، كان مجموع ما خرج منها أكثر من عشرين ألف رجل، فأغار على نواحيها وقتل من أدرك من الرجال وسبى من وجد من الذرية واستاق معه من الأغنام والبقر والمتاع شيئا كثيراً. وعاد الى دمشق ليخبر أبا عبيدة بخروج الجيش من بعلبك إلى بيسان، فأرسل أبو عبيدة نجدة لعمرِى، ثم لحق به بعد أن استُخلِف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، فتحول الروم الى الأردن فجاءهم المسلمون.

وعاد أبو عبيدة وخالد إلى دمشق، ومنها خرجا الى أرض البقاع وبعلبك، فغلب خالد على أرض البقاع، واتجه شمالاً حتى نزل قِبليّ بعلبك، فخرج إليه رجال من أهلها، فأرسل إليهم نحواً من خمسين فارساً فحملوا عليهم وأجبروهم على الإنكفاء والاحتماء في حمص المدينة.

وبعث أهل بعلبك في طلب الصلح فأعطاهم أبو عبيدة الأمان على أنفسهم

وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم على يد عبد الله بن رومان كتاباً صالحهم فيه على إنصاف منازلهم وكنائسهم ووضع الخراج.

وأورد كل من البلاذُري وابن عساكر نصّين مختلفين حول ذلك الصلح:

نص الصلح عند البلاذري

وجاء في النص عند البلاذري: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب أمان لفلان بن فلان وأهل بعلبك، رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم، داخل المدينة وخارجها، وعلى أرجائهم، وللروم أن يرعوا سَرْحَهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية محاصرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاؤوا. ومن أسلم منهم فله ما لنا وعليه ما علينا. ولتجارهم أن يسافروا حيث أرادوا من البلاد التي صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله، وكفى بالله شهيداً».

نص الصلح عند ابن عساكر

وجاء في النص عند ابن عساكر: «قال اسماعيل بن عياش أن أبا عبيدة كتب لأهل بعلبك: . . . هذا أمان من أبي عبيدة بن الجراح لفلان بن فلان، وفلان وأهل مدينتهم بعلبك، رومها وفرسها وعربها، ولرؤسائها وسكانها الروم والنصارى، ولأموالهم ولدوابهم ولبيعهم وديارهم، وكل شيء لهم خارج المدينة من المواشي، ولأرحائهم، وإنهم على سَكَنَهم لا يُكرهون عليه، وإن عليهم السمع والنصح والطاعة، والحرب. وإن للروم أن يُسرِّحوا ويظعنوا حيث شاؤوا خمسة عشر ميلاً. ولا يلبثوا في قرية أو أبنية. ولأهل المدينة وتجارها وكسّابها أن يتجروا في المدينة شهري ربيع وجمادى الأولى، فإذا انسلخ فإنهم يسيرون حيث شاؤوا أن يمكثوا بأموالهم ودوابهم. وإن مكثوا بعد الثلاثة أشهر، فإن عليهم مثل ما على أهل المدينة من الطاعة والنصح وإعطاء الذي عليهم من السبيل. فإن أحبوا أن يسيروا عند نافذ هذه الصحيفة ساروا. وإن لنا على الروم وفارس أن لا يحملوا شيئا كان للمؤتمنين من أموالهم عند النبط والعرب من حيث نفاد هذه الصحيفة. . . فإن

مكثوا فلنا عُشُور العرب والروم وأهل المدينة، وإن شاؤوا أن يذهبوا حيث شاؤوا من الأرض بأموالهم، فإن ذمة أبي عبيدة والمؤتمنين لهم بهم. وإن للمؤتمنين ما عرفوا من أموالهم عند الروم والعرب، وإن لنا عندهم كل نفس حرة مسلمة فيهم في رومهم وفرسهم وعربهم ونبطهم. والله هو الشاهد على هذه الصحيفة، ويزيد بن أبي سفيان، ومَعْمَّر بن وثّاب. وكتب عبد الله بن رومان وختم أبو عبيدة بخاتمه».

ويظهر من كتاب الصلح أن سكان بعلبك كانوا من النصارى وهم السكان الأصليون من أهل بعلبك، ومن الروم أيضاً أي رعاة الامبراطورية البيزنطية الحاكمة وكذلك كانوا من الفرس وهم من بقايا الفرس الذين أخضعوا ساحل الشامل لحكمهم أثناء صراعهم ضد الروم، وقد استعرب الكثير منهم.

رواية الواقدي

وهناك أيضاً رواية أخرى عن فتح بعلبك منسوبة إلى الواقدي تقول: «إن أبا عبيدة أتى إلى بعلبك بعد فتح قنسرين والعواصم وكان قد عقد مع أهلها صلحاً وكذلك مع أهل حمص وشيزر وغيرها وأن مدة الصلح أشرفت على الانقضاء، ولذلك عاد لتقرير أمرها، خصوصاً بعد أن قدمت جموع هائلة من الروم عن طريق حمص وبعلبك وانتشرت في البقاع، حيث خشي المسلمون أن يحال بينهم وبين إخوانهم الرابطين في الأردن. وقبل أن يصل أبو عبيدة الى بعلبك قام جنوده بالاستيلاء على قافلة كانت قادمة من الساحل وفيها أربعمئة حِمْلٍ من السكر والفستق والتين وغير ذلك. وأخذوا رجال القافلة أسرى، لكن بعضهم استطاع الإفلات والوصول الى المدينة، فأخبروا بقدوم المسلمين. وكان في بعلبك بطريق (باتريكيوس أي قائد عند البيزنطيين) يدعى هربيس فخرج إلى ظاهرها في سبعة آلاف رجل لقتال المسلمين، لكنه ارتدَّ مثقلاً بالجراح، وعندما وصل أبو عبيدة إلى أسوار المدينة تبين له أنها تكتظ بالسكان من أهلها وأهل السواد والقرى القريبة منها، وأنها مدينة هائلة وحصن حصين، ولا غرو ففيها القلعة الرومانية التي تعد من عجائب الدنيا. كما لاحظ شدة البرد عندها شتاءً وصيفاً». فكتب إلى أهلها

كتاب الصلح المذكور آنفاً.

وقد أحدث الكتاب خلافاً بين أهل بعلبك، فمنهم من وافق على تسليم المدينة دون قتال، ومنهم من صمم على المقاومة كالبطريق هربيس. وصعد المقاتلون إلى الأسوار وراحوا يقذفون المسلمين بالسهام والحجارة، ثم خرجوا من الأبواب وقاتلوهم يومين، لكن المسلمين ألجأوهم إلى ضيعة حصينة في الجبل فحاصروهم فيها حتى أجبروهم على الاستسلام وصالحوهم على ألفي أوقية من الذهب ومثلها من الفضة، وألفي ثوب من الديباج وخمسة آلاف سيف، وأن يسلم المقاتلون المحاصرون في الضيعة سلاحهم، ويؤخذ منهم رهائن لضمان تسليم المال المقرر، وأن يؤدوا خراج أرضهم للعام التالي، وأداء الجزية في كل عام، وأن لا يحملوا سلاحاً على المسلمين، ولا يكاتبوا أحداً من ملوكهم، ولا يُحْدِثوا كنيسة، وعليهم أن يقدموا النصح للمسلمين كي يستفيدوا من ذكائهم وسعة اطلاعهم وثقافتهم، وهذا ما كان يفتقده المسلمون القادمون من الصحراء القاحلة.

واشترط أهل بعلبك في مقابل ذلك أن لا يدخل عسكر المسلمين الى مدينتهم وأن يرفع الحصار عن مقاتليهم في الضيعة المحاصرة. فوافق أبو عبيدة على ذلك واستعمل (وضع عاملاً) على بعلبك رجلاً من سادات قريش يدعى رافع بن عبد الله السهمي وضم إليه خمسمئة فارس من أبناء عشيرته وأربعمئة من أخلاط المسلمين، وأوصاه أن يقيم الإرصاد والمسالح في أطراف البلاد، وحذره من الروم الذين في السواحل، وأمره أن يشن الغارات عليهم، فالتزم السهمي تنفيذ أوامر أبي عبيدة، فأقام خارج بعلبك وبعث السرايا لشن الغارات على سواحل الروم، وكان يبعث بالغنائم فيبيعها في أسواق بعلبك عن طريق التجار، ووقف هؤلاء على حسن معاملة المسلمين في البيع والشراء، فرغبوا في دخول رافع ومن معه الى المدينة فدخلوها بعد أن أذن لهم أبو عبيدة بذلك.

أما تاريخ فتح مدينة بعلبك فيعود إلى ما بين عامي ١٤ و١٥ هجرة حيث يقول ابن اسحاق وغيره: سنة ١٤ فتحت حمص وبعلبك صلحاً على يدي أبي عبيدة الجراح في ذي القعدة، ويقال في سنة ١٥ هجرية.

ويروي الواقدي أيضاً أنه بعد فتح بعلبك استعد أبو عبيدة للرحيل إلى حمص فورد عليه صاحب «عين الجوز»، لعلها محرّفة عن «عين الجر» وهي عنجر الحالية في البقاع، يطلب الصلح فصالحه على نصف ما صالحه عليه أهل بعلبك وولّى عليهم سالم بن ذؤيب السُّلمى وأوصاه بمثل ما أوصى به السهمي.

وهكذا يمكننا القول أن أبا عبيدة، وبينما كان في طريقه من دمشق إلى حمص فتح أول مدينة لبنانية رئيسية هي بعلبك.

ونختم الحديث عن بعلبك بالإشارة إلى أن تاريخها مرتبط ارتباطاً وثيقاً بإقليم البقاع، فما كان يجري فيها وحولها كان ينعكس على الإقليم بكامله، ولهذا فإن الأخبار التاريخية تتمحور حول عاصمة الإقليم المركزية، غير أن هذا لم يمنع من ذكر بلدة القاع التي نزلها الإمام الأزاعي واستضافه بيت من النصارى وهي تقع شمالي بعلبك في الطريق إلى حمص.

وهناك أيضاً بلدة كرك نوح التي درس فيها الإمام الأوزاعي مما يعني أنها كانت تشهد حركة علمية في السنوات العشر الأخير من القرن الأول الهجري. ذكرها ياقوت في «معجم البلدان» فقال: «كرْك»، بتسكين الراء وآخره كاف، قرية في أصل جبل لبنان، وهي تقع شمالي زحله والمعلّقة، وقد أصبحت هذه الثلاث بلدة واحدة.

أما بلدة عنجر، أو «عين الجر» فيقول ياقوت عنها في معجمه: «عين الجر: موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق، يقولون إن نوحاً عليه السلام، منه ركب في السفينة». وهي في وسط الطريق بين دمشق وبيروت.

واسم عنجر مركب من كلمتين: عين والجر، فالعين تعني ينبوع الماء والجر يقصد بها اسفل الجبل. وبذلك يكون الاسم مأخوذاً من موقع عين الماء النابع عند أسفل الجبل. وتعرف اليوم بعنجر أو مجدل عنجر وكان اسمها قديماً كالسيس.

وقد ورد في كتاب «تاريخ دمشق» لابن عساكر رواية طريفة تتعلق ببركة المياه في عين الجر تقول: «قال أبي المهاجر ـ اسماعيل بن عبيد الله الذي كان مرابطاً في

بيروت ـ: ولّى الوليد بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز المدينة فأتاه أهلها فذكروا له أن بها يهودياً قد أفسد النساء على الرجال والرجال على النساء بسحره، فبعث إليه عمر ونفاه عن المدينة إلى دمشق، وكان يقال له زُرعة بن ابراهيم من أهل خيبر، فلما أتى دمشق نزل على جناح مولى الوليد فكان في خدمته».

«ثم إن الوليد خرج إلى عين الجر متنزهاً، فخرج معه جناح ومعه زرعة. ثم إن الوليد قال ذات ليلة: يا جناح قد أرّقني نقيق الضفادع في هذه البركة. فقال له جناح: إن عندي يهودياً معه علم يذكر أن معه الاسم الأعظم، وأرجو أن يكون عنده في ذلك شيء».

«فرجع جناح إلى رَحْله فقال له: يا زُرعة، إن أمير المؤمنين شكا إليّ نقيق الضفادع، أفعندك فيها حكمة؟ قال: نعم. فأخذ أربع شقاف فكتب فيها كلاماً بالعبرانية ثم ألقاها في أربع زوايا، في كل زاوية شقفة، فهدأ النقيق».

«فأرسل الوليد إلى جناح يسأله: ما هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين ذلك اليهودي الذي عرّفتُك فعل كيْت وكَيْت. فقال: لقد أوحشني ذلك، فلو نقّ منها عداد. فقال ذلك جناح لزرعة، فأخذ شقفة وكتب فيها كلاماً بالعبرانية وألقاها في البركة، فنقَّ من الضفادع عداد».

«فكتب وليد عمر بن عبد العزيز إلى عمر وهو بالمدينة يخبره بقصة الرجل الذي نفاه وما كان من أمره وقصته في الضفادع. فكتب عمر إلى الوليد: يا أمير المؤمنين، إن هذا اليهودي قد ضجَّ منه أهل المدينة وقد أفسد أهلها ولا آمن من أن يفسد الشام. فبعث إليه الوليد فأخبره بكتاب عمر وقرأه عليه وهمّ بقتله. فقال له زرعة: إني أتوب يا أمير المؤمنين إلى الله من السحر، وأُسْلِم على يدك».

قال أبي المهاجر: «صحّ عندنا إسلامه ولم تصحّ عندنا توبته من السحر».

موقعة عنجر

ولا يمكننا خلال حديثنا عن عنجر إغفال «موقعة عنجر» الهائلة التي دارت بين آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد وخصمه سليمان بن هشام بن عبد

الملك حيث اشترك فيها بين المئة والعشرين ألفاً والمئتي ألف رجل.

وقد أورد هذه الواقعة كل من الطبري واليعقوبي وغيرهم من المؤرخين. يقول هؤلاء:

وكان سبب هذه الحرب أن مروان بن محمد أظهر أنه يريد البَيْعة ليزيد بن الوليد بعد قتل الوليد بن يزيد، وأن إبراهيم بن الوليد طلب البيعة لنفسه، فخرج مروان إلى قنسرين ودعا أهلها إلى مبايعته، فمال إليه يزيد بن عمر بن هُبيرة في القَيْسيَّة، ثم رحل إلى حمص فخرج أهلها وبايعوه، وساروا بأجمعهم معه.

من جهة أخرى، أرسل إبراهيم بن الوليد جنوداً مع سليمان بن هشام فسار بهم حتى نزل عين الجرّ، وهم يبلغون مئة وعشرين ألف فارس، وجاء مروان في نحو من ثمانين ألفاً، فالتقيا فدعاهم مروان إلى الكف عن قتاله، والتخْلية عن ابني الوليد: الحكم وعثمان، وهما في سجن دمشق محبوسان، وضمن عنهما ألا يؤآخذاهم بقتلهم والدهما، وألا يطلبا أحداً ممن ولي قتله، فأبوا عليه، وجدّوا في قتاله، فاقتتلوا ما بين ارتفاع النهار إلى العصر، واستمر القتل بينهم.

وكان مروان مجرباً مُكايداً، فدعا ثلاثة أنفار من قواده، أحدهم أخ لإسحاق بن مسلم يقال له عيسى، فأمرهم بالمسير خلف صفه في خبله وهم ثلاثة آلاف، ووجه معهم فعلة بالفؤوس، وقد التقى الصفان من أصحابه وأصحاب سليمان بن هشام ما بين الجبلين المحيطين بالمرج، وبين العسكرين نهر جرار، وأمرهم إذا انتهوا إلى الجبل أن يقطعوا الأشجار، فيعقدوا جسوراً ويجوزوا إلى عسكر سليمان ويُغيروا عليه. فلم تشعر خيول سليمان وهم مشغولون بالقتال إلا بالخبل والبارقة والتكبير في عسكرهم من خلفهم، فلما رأوا ذلك انكسروا وكانت هزيمتهم، ووضع أهل حمص السلاح فيهم لتمرّدهم عليهم، فقتلوا منهم نحواً من سبعة عشر ألفاً، وكفّ أهل الجزيرة وأهل قنسرين عن قتلهم، فلم يقتلوا منهم أحداً، وأتوا مروان من أسراهم بمثل عدد القتلى وأكثر، واستُبيح عسكرهم. فأخذ مروان البيعة للغلامين: الحكم وعثمان، وخلّى عنهم بعد أن قوّاهم، بدينار دينار وألحقهم بأهاليهم، ولم يقتل منهم إلا رجلين يقال لأحدهما يزيد بن العقار وللآخر

الوليد بن معاد الكلبيّان، وكانا في من ساروا إلى الوليد لقتله. وكان يزيد بن خالد بن عبد الله القْسريّ معهم، فسار حتى هرب في من هربوا مع سليمان بن هشام إلى دمشق، وكان أحدهما، أي الكلبيَّيْن، على حَرَس يزيد، والآخر على شرطه، فإنه ضربهما في موقعه ذلك بالسيّاط، ثم أمر بهما فحُبسا، فهلكا في حبسه.

وكانت الموقعة في سنة ١٢٧ هجرية ـ ٧٤٥ ميلادية. وحين تحدث المنبجي عن هذه الموقعة حدّد مكانها بأنه «قرية» في ما بين لبنان وتلّ غزًا.

وفي سنة ١٣٢هـ ـ ٧٠م جاء عبد الله بن علي العباسي إلى عين الجرّ ولبث فيها يومين قبل أن يذهب إلى دمشق.

ولا تتحدث المصادر التاريخية عن أيّ عملية تخريب للمدينة في العهد الأمويّ، ممّا يعني أنها كانت لا تزال قائمة بمعالمها الأموية في العصر العباسي.

فتح المدن الساحلية

لقد ظلت مدن الساحل، لبعض الوقت، خارج منطقة الفتوحات العربية لأن هذه المدن كانت تلقى المدد من الروم بحراً ولأن السيادة البحرية آنذاك كانت في يدهم. ولم يمض وقت طويل حتى سقطت جميع المدن في يد معاوية ويزيد من دون أية مقاومة تذكر.

كيف تم فتح السواحل؟

كان أبو عبيدة قد عين يزيد على دمشق التي فتحت في أيلول من العام ٦٣٥ ميلادية. ولكنه بفتح السواحل، عمد يزيد بمعاونة أخيه معاوية إلى احتلال بيروت سنة ٦٣٥، ثم احتل في السنة التالية ٦٣٦م مدن صيدا وصور وجبيل وعرقة، ولم تحدد المصادر التاريخية الطريق التي سلكها المسلمون إلى المدن الساحلية، ما إذا كانت عبر الجبال من البقاع أم عن طريق الساحل من الجنوب...

وفي رواية البلاذري عن فتح المدن الساحلية لم يذكر تراتبيّة فتح هذه المدن، إذ يوردها من دون مراعاة لترتيب مواقعها الجغرافية، فيذكر صيدا أولاً، وهي في الجنوب من القطاع الأوسط لساحل الشام «لبنان» ثم يذكر عِرقه، وهي في أقصى الشمال من القطاع، وبعدها يذكر جبيل وبيروت وهما في الوسط. من هنا يمكننا الظن أن البلاذري لم يذكر المدن المفتوحة على ذلك النسق اعتباطياً، إذ يحتمل أن تكون القوة الفاتحة المنطلقة من دمشق انقسمت إلى فرقتين، توجهت إحداهما جنوباً بقيادة يزيد إلى صيدا، وتوجهت الأخرى شمالاً بقيادة معاوية إلى عرقه. وهذا الظن يدعمه نصّ رواية البلاذري حيث يقول: إن يزيد أتى بعد فتح مدينة دمشق صيدا وعرقه وجبيل وبيروت، وهي سواحل، وعلى مقدمته أخوه معاوية، ففتحها فتحاً يسيراً، وجلا كثيراً من أهلها، وتولى فتح عرقه معاوية نفسه في

ولاية يزيد.

وفي رواية أخرى للبلاذري يفيد بأن الفاتح لمدن الساحل هو معاوية لوحده، فيقول: «كان يزيد بن أبي سفيان وجّه معاوية إلى سواحل دمشق، سوى طرابلس، فإنه لم يكن يطمع فيها، فكان يقيم على الحصن اليومين والأيام اليسيرة، فربما قوتل قتالاً غير شديد، وربما رمى ففتحها. وكان المسلمون كلّما فتحوا مدينة ظاهرة أو عند ساحل رتبوا فيها قدر من يحتاج لها إليه من المسلمين، فإن حدث في شيء منها حدث من قبل العدو سرّبوا إليها الأمداد».

ومن الملاحظ أن البلاذري لم يذكر مدينة صور في عداد المدن التي احتلّها يزيد بن أبي سفيان وأخوه معاوية بل ينسب البلاذري ذلك إلى شرحبيل بن حسنة. كما أن الواقدي ينسب احتلال صور إلى خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان.

فتح طرابلس

خشي المسلمون في البداية أمر طرابلس بسبب مناعتها وحماية الأسطول البيزنطي لها، إلا أن معاوية ضرب الحصار حولها سنة ٦٣٥م ولكنها امتنعت عليه، إلا أنه استمر في حصارها، ولم يُعرف تاريخ سقوطها بالضبط، من هنا يمكن الاستنتاج أنها أخذت سلماً.

وقد تعددت الروايات عن سقوط طرابلس، وجاء في رواية البلاذري ما خلاصته أن قائداً من قادة الروم كان في حلب، فلما سقطت حلب أسلم مع جنوده، ثم اتفق مع أبي عبيدة وادعى لحاكم طرابلس أنه جاء نجدة من البيزنطين، فلما دخل المدينة سيطر عليها وسلّمها للمسلمين.

أما في رواية ثانية لابن الأثير فهو يجعل المدينة تحت الحصار طيلة حكم الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ويقول: «إن الروم غلبوا على بعض السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ثم رمّمها وشحنها بالمقاتلة وأعطاهم القطائع. ولمّا وليّ عثمان الخلافة وجمع لمعاوية الشام، وجّه معاوية سفيان مجيب الأذدي إلى طرابلس، وهي ثلاث مدن مجتمعة، ثم بنى في

مرج على أميال منها حصناً سمي حصن سفيان وقطع المادة عن أهلها من البرّ والبحر وحاصرهم. فلما اشتدّ عليهم الحصار اجتمعوا في أحد الحصون الثلاثة وكتبوا إلى ملك الروم يسألونه أن يمدّهم أو يبعث إليهم مراكب يهربون فيها إلى الروم، فوجه إليهم مراكب كثيرة ركبوا فيها ليلاً وهربوا. فلما أصبح سفيان، وكان يبيت هو والمسلمون في حصنه، ثم يغدو على العدو، وجد الحصن خالياً، فدخله وكتب بالفتح له، فأسكنه معاوية جماعة كثيرة من اليهود».

هكذا، وبحسب رواية ابن الأثير فإن سقوط طرابلس يكون في حدود العام ٦٤٤م، أي في مطلع حكم عثمان بن عفّان. ومع فتح طرابلس يكون الساحل اللبناني في أيدي الفاتحين المسلمين.

فتح بيروت

يرتبط تاريخ الفتح الإسلامي لبيروت بتاريخ فتح كل من صيدا وعرقه وجبيل حيث جرى فتح هذه المدن كلها في وقت واحد حسب رواية البلاذري وذلك نحو سنة ١٣هـ على الأرجح، ويظهر أنها كانت صغيرة غير محصنة بما يكفي، ولهذا كان فتحها يسيراً على يد يزيد بن أبي سفيان وكان في مقدمة جنده أخوه معاوية. ونتج عن الفتح أن أُجلي الكثير من أهلها، وكانوا من الروم في الغالب.

ومنذ أن فتحت بيروت أصبحت تابعة لولاية يزيد بن أبي سفيان، وبعد وفاته في سنة ١٨هـ أصبحت تابعة لمعاوية والي الشام وصارت تعرف بساحل دمشق. ونظراً لموقعها الطبيعي فقد أصبحت الميناء الطبيعي لدمشق، ولهذا فإن معاوية اهتمّ بها وراح يرسل إليها الناس للسّكن فيها وإعمارها والدفاع عنها، خصوصاً بعد أن تمكن البيزنطيون من الاستيلاء على ساحل الشام لمدة سنتين بعد فتحه، فكان أكثر أهلها من الفرس الذين نقلهم معاوية إليها.

وقد أسهمت بيروت مثل غيرها من المدن الساحلية في الغزوات البحرية التي قام بها المسلمون إلى جزر المتوسط، كما أسهمت في الدفاع عن سواحل الشام، فرابط فيها جماعة من الصحابة. وكانت بيروت مرابط أهل دمشق منذ عهد الخليفة

عمر بن الخطاب، إذ سأل «سلمان الفارسي» الدمشقيين عن أبي «الدرداء» فقالوا له: إنه مرابط. فقال: وأين مرابطكم يا أهل دمشق؟ فقالوا: بيروت، فخرج للرباط معه هناك.

ويقول ابن حوقل: «بيروت على ساحل بحر الروم، وهي فُرْضة بعلبك، وبها يرابط أهل دمشق وسائر جندها، وإليها ينفردون عند استنفارهم».

كانت بيروت من جند دمشق يليها عامل وذلك خلال عهد الخليفتين عمر وعثمان، ثم أصبح خلفاء بني أمية في دمشق يولون عليها الولاة. وقد وصلنا اسم اثنين من ولاتها في العصر الأموي هما عبد الرحمن بن سُلَيم الكلبي وأيوب بن خالد الجهني.

عبد الرحمن بن سليم الكلبي

كنيته أبو العلاء، عرف بوالي بيروت وأمير الساحل. وأتى على ذكره ابن عساكر في سياق حديثه عن حملة بحرية قام بها البيزنطيون إلى ساحل الشام وحاصروا طرابلس على عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) حيث يقول ابن عساكر إن والي بيروت وأمير الساحل عبد الرحمن خفّ في جماعة من أهلها لنجدة أهل طرابلس، وسلك الطريق الساحلية عبر وجه الحجر، وتولى بنفسه التفاوض مع البيزنطيين بعد دخوله المدينة لتقرير شيء من أرض المسلمين في ذلك العام(١).

أيوب بن خالد الجُهني الحرّاني، أبو عثمان

وُلّي على بيروت في عهد يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥هـ) وكان محدثاً. قال أبو عروبة الحراني: ولي أيوب بيروت، فسمع من الأوزاعي هناك بأحاديث مناكير(٢). وقد أخطأ بعضهم فقال إن أيوب ولي «بريد بيروت»، ناقلين ذلك عن نسخة خطية من كتاب «الكامل في ضعفاء الرجال» لابن عدي. والصحيح

---

(١) تاريخ دمشق المخطوط.

(٢) تهذيب تاريخ دمشق.

ما جاء في «تهذيب التهذيب» لابن حجر «ولي يزيد بيروت». أما عبارة ابن عساكر في تاريخ دمشق فهي: «ولي أيوب بيروت»، فيتضح أن التحريف والغلط وقع في اسم يزيد وهو الخليفة (يزيد بن عبد الملك) فأصبح «بريد»!

ويمكننا أن نتبين يقيناً من اسمي الواليين الأمويين هوية القبيلة العربية التي كانت بطون منها قد نزلت بيروت. فعبد الرحمن الكلبي من اليمنيين وأيوب الجهني من جهينة وهي قبيلة يمنية أيضاً من قضاعة، منهم كلْب وجُهينة. ونحن نعرف من شعر للقطاميّ التعلبيّ إبان الصراعات القيسية ـ اليمنية بالجزيرة عام ٧٠هـ، أن بطوناً من قبيلة كلب أضطرت تحت ضغط القبائل القيسية إلى مغادرة مواطنها الأصلية على ضفاف الخابور إلى البقاع ومشارف بيروت.

وفي عهد هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ) قام البيزنطيون بغزوة بحرية إلى بيروت فهاجموا ميناءها واستولوا على سفينة لجماعة من تجار مرسية، وتقدموا بسفنهم حتى قاربوا باب الميناء، فوقف أهل الميناء وهم يمسكون بأيديهم خوفاً ورهبةً حتى خرج إليهم أمير البحر «الأسود بن بلال» ويقال «ابن هلال المحاربي» فصاح بهم وركب قوارب صغيرة وأجهد نفسه في طلب البيزنطيين حتى لحق بسفنهم وأوقع بمقاتليهم واستنفذ المراكب والتجار.

ويكاد أن يكون الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥ ـ ١٢٦هـ) الخليفة الأموي الوحيد الذي زار بيروت والقرى المشرفة عليها، وصارت له ذكريات فيها فأنشد بذكرها في شعره يقول:

رُبَّ بيت ليس لنا ببلادٍ ... سوف تأتيه من قرى بيروت
من بلاد ليس لنا ببلادٍ ... كلما جئت نحوها حييت

وقول آخر فيه:

إذا شئت تصابرت ... ولا أصبر إن شبت
ولا والله لا يصبر ... في البرية الحوت
إلا يا حبّذا شخص ... حَمَت لقياه بيروت

جبل لبنان

لم تشر الروايات التاريخية إلى اقتحام العرب لمناطق الجبل إلا تلك الروايات التي وردت عن خالد بن الوليد وفيها أنه أرسل سرية من البقاع إلى بيروت فقضى عليها الروم في عين ميسنون. وممّا يزيد في تأكيد عدم اقتحام العرب للجبل أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة عندما بلغه خبر طاعون عمواس وفتكه بالمسلمين ينصحه بقصد الجبال لأنه أنزل جنوده في الوهاد والمنخفضات.

يذكر أن معاوية كان أول خليفة حاول أن يخضع سكان الجبل النصارى ولكنه لم يفلح وأعاد الكرة ولم يفلح أيضاً. كذلك فإن الخلفاء الذين أتوا بعده لم يوفقوا في إخضاع الجبل.

من هم سكان هذا الجبل الذي عصى على الفاتحين؟ إنهم، وبحسب الروايات التاريخية، الوثنيون الذين اهتدوا إلى الدين المسيحي على أيدي بعض الرهبان الموارنة القادمين من سوريا وقد انضم إليهم فيما بعد الجراجمة ـ المردة وهؤلاء قوم عرفوا بالجراجمة نسبة إلى مدينة الجرجومة في جبل اللكام.

الجراجمة ـ المردة

يخطىء العديد من المؤرخين عندما يفصلون بين الجراجمة والمردة، فمن هم الجراجمة ـ المردة؟

إن الجراجمة ـ المردة كانوا مقيمين في سوريا منذ مئات السنين قبل حملاتهم المشهورة ضد الأمويين في القرن السابع للميلاد. وهكذا كان هؤلاء الجراجمة المردة سوريين آراميين لغة وموطناً على الأقل منذ بضع مئات من السنين قبل القرن السابع للميلاد. واسم «مردة» باللغة الفارسية يعني الرجل الشجاع والبطل الصنديد،

واسمهم السرياني «جراجمة» يعني أيضاً الرجال الأشداء الأبطال، فلفظة الجراجمة السريانية والمردة الفارسية مترادفتان.

ويتضح من كلام البلاذري أن الجراجمة مردة اللكام كانوا ملكيين تابعين للروم قبل الغزو العربي وبعده حيث يقول: «إن الجراجمة من مدينة جبل اللاك، عند معدن الزاج بين بياس وبوقا يقال لها الجرجومة. إن أمرهم كان في أيام استيلاء الروم على انطاكية والشام إلى بطريق (بطرك) انطاكية وواليها. فلما قدم أبو عبيدة انطاكية وفتحها لزموا مدينتهم وهموا باللحاق بالروم إذ خافوا على أنفسهم فلم ينتبه المسلمون لهم ولم ينبّهوا عليهم. ثم إن أهل انطاكية نقضوا وغدروا، فوجه إليهم أبو عبيدة من فتحها ثانية وولاها بعد فتحها حبيب بن سلمة الفهري، فغزا الجرجومة فلم يقاتله أهلها، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح فصالحوه على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم. ودخل من كان في مدينتهم من تاجر وأجير وتابع من الأنباط وغيرهم، وأهل القرى في هذا الصلح فسموا الرواديف لأنهم تلوهم وليسوا منهم. ويقال إنهم جاؤوا بهم إلى عسكر المسلمين وهم أرداف لهم فسمّيوا رواديف.

وكان الجراجمة يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى فيكاتبون الروم ويمالئونهم ولذلك عرفوا بالمردة لكثرة تمرّدهم على العرب والبيزنطيين على حدّ سواء. وبحسب هذه الجملة الأخيرة لدى البلاذري يستدلّ أن الجراجمة والمردة شعب واحد في تسميتين.

والجراجمة في الأصل من بلاد فارس وقد خرجوا مع سيف بن ذي يزن إلى اليمن لمساعدته في حربه ضد الأحباش فعرفوا هناك بـ«الأنباء» وفي صنعاء بـ«بني الأحرار». واستوطنوا بعد ذلك في البلاد فعرفوا في الكوفة بـ«الأحامرة» وفي البصرة بـ«الأساورة» وفي الجزيرة بـ«الخضارمة» وفي الشام بـ«الجراجمة».

وكان الجراجمة في الأصل في جوار مرعش المعروفة قديماً بـ«جرمانيقية»، ثم انتقلوا إلى شمالي الشام واتخذوا مدينة الجرجومة عاصمة لهم. وهذا ما ورد

في كتاب «تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار» لهنري لامنس.

إذن، وبحسب ما أوردنا، فإن العلاقات بين الجراجمة والمسلمين بدأت في طورها الأول في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، فاتخذهم المسلمون عيوناً لهم ومسالح ترصد الدروب عند جبل اللكام على الحدود المتاخمة للدولة البيزنطية، ورفعوا عنهم الجزية وسمحوا لهم بالحصول على نصيبهم في الغنائم إذا حضروا معهم الحرب.

إلا أن الجراجمة انقلبوا في عهد معاوية فأظهروا العداء للمسلمين وشاركوا البيزنطيين في حملتهم البحرية التي استهدفت سواحل الشام في سنة ٦٦٩م. وقد ذكرتهم المصادر اليونانية القديمة باسم المردة وفي ذلك أيضاً تأكيد على أن الجراجمة والمردة شعب واحد.

بدأ الجراجمة بالتسلّل إلى سورية من مناطقهم الوعرة الخصيبة في جبل اللكام وجبال طِورس، هذه الجبال التي كانت تشكل الحدود الطبيعية بين سورية والأناضول، وقد كانت السفوح الجنوبية لهذه الجبال حاجزاً عجزت عنه موجات الفتح العربي»[١]. وفي عام ٦٦٦م. اتخذت الغزوات البسيطة التي كان الجراجمة يشنونها على سورية شبه حرب اجتياح. فقد كان قوادهم من الروم، وكانت فرق عسكرية من الروم تشدّ إزرهم، كما كانت قطع من الأسطول تساندهم في البحر. وقد أوصلهم زحفهم إلى قلب لبنان فاحتلوا النقاط الاستراتيجية فيه حتى مشارف فلسطين.

وقد أشار المؤرخ اليوناني تيوفانس المتوفى سنة ٨١٨م. إلى هذه الفترة فقال: «في سنة ٦٦٩ للمسيح دخل المردة لبنان واحتلوا كل ما يقع بين الجبل الأسود والمدينة والأسرى، فبلغ عددهم في مدة وجيزة عدة آلاف»[٢].

ويلاحظ هنا اختلاف في السنوات ما بين ٦٦٦ و٦٦٩، فربما لأن مجيء الجراجمة إلى لبنان كان خلال هذه المدة وليس في سنة واحدة.

---

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

(٢) تاريخ الموارنة، الأب بطرس ضو.

وفي هذه الفترة كان العالم الإسلامي يعاني أزمة داخلية خطيرة، فلم يعبأ بما كان يجري في لبنان إذ كانت الحرب قائمة بين معاوية وعلي بن أبي طالب حول الخلافة. وقد رأى معاوية أنه من الحكمة أن يدفع جزية للروم مقابل أن يمتنع هؤلاء عن مساعدة المردة، العدو الداخلي الجديد.

ويجعل البلاذري مجيء الجراجمة إلى لبنان في عهد عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) في حين يؤخذ من أقوال ابن عساكر أن تسرّبهم كان على دفعات: في البدء كان تحركهم أيام جرب معاوية والإمام علي، وفي المرة الثانية عندما هاجم الأمويون مجدداً القسطنطينية لمدة طويلة (حرب ٦٧٤ ـ ٦٧٨) وفشلوا في فتحها بسبب اكتشاف البيزنطيين لسلاح ناري هو النار اليونانية التي اخترعها كلينيكوس البعلبكي وأدت إلى إحراق كثير من السفن العربيّة.

أما في المرة الثالثة، فقد عرف البيزنطيون باستعدادات معاوية لغزو عاصمتهم في البر والبحر، فعمدوا إلى عرقلة هذه الاستعدادات بتحريض الجراجمة على مهاجمة السواحل والجبال المطلّة على شرقي البحر المتوسط. وبالفعل توغلت جماعات كثيرة من هؤلاء إلى جبال لبنان لتقطع على معاوية خطوط مواصلاته وتموينه ففصلوا بذلك المناطق الساحليّة عن الداخل. وفي الوقت ذاته، عمد الأسطول البيزنطي إلى مهاجمة السواحل بسبب انقطاعها عن الداخل. ونجحت خطة البيزنطيين. وقد وجد هؤلاء الجراجمة ومن معهم من مرتزقة عوناً من بعض سكان لبنان والتفافاً حولهم بحيث أن قسماً منهم بقي في لبنان بعد انتهاء غاراتهم.

وأما في المرة الثالثة فقد تجدد النزاع بين معاوية والبيزنطيين بعد ذلك بفترة قصيرة، أي سنة ٦٧٤م، بعد أن استعد معاوية وجهز الحصون الشمالية من سورية، وخاصة منطقة إنطاكية بجماعات من «الزطّ» استقدمها من جنوبي العراق لصدّ هجمات الجراجمة وغيرهم.

ففي تلك السنة بدأ معاوية حملته الكبرى على القسطنطينية، وقد تخلل هذه الفترة هجوم الجراجمة من شمالي سورية مرة ثانية. فقد أورد ابن عساكر أنه في «سنة ١٧هـ من خلافة معاوية (٦٧٧م) ركب الروم السفن وأتوا ساحل صيدا

وصور فاستولوا على جبل لبنان وانتشروا من جبل الجليل إلى الجبل الأسود ليشغلوا العرب عن الغزو، ومكثوا في البلاد حتى أخرجهم عبد الملك بن مروان.

ولقد وجد معاوية نفسه أمام ثلاثة اعتبارات مهمة:

أولاً: عدم تمكن جيشه من القسطنطينية.

ثانياً: سقوط المناطق الجبلية والساحلية من شمالي سوريا إلى أواسط فلسطين في أيدي جماعات موالية للبيزنطيين.

ثالثاً: ضرورة تهيئة البلاد لابنه يزيد، لأن معاوية أصبح طاعناً في السن، لذلك عمد إلى المفاوضة، وتولى أحد السياسيين البيزنطيين هذه المفاوضة في دمشق، فانسحب معاوية رافعاً حصاره عن القسطنطينية ووقع معاهدة صلح لمدة ثلاثين سنة مع البيزنطيين (٦٧٨م). ولكن الاتفاقية لم تذكر مصير الجماعات التي انتشرت في الجبال والسواحل من سورية ولبنان وفلسطين إلا بنقطة واحدة، وهي امتناع بيزنطية عن مساعدتهم.

ويبدو من الحوادث التي جرت فيما بعد، في خلافة عبد الملك بن مروان، أن هذه الجماعات كان قد رجع معظمها إلى أماكن انطلاقها، وبقي قسم منها في لبنان بدليل الهجوم الذي تعرض له جيش يزيد بن معاوية، عندما كان متوجهاً إلى حماه، من قبل هذه الجماعات.

وخلال هذه الفترة من خلافة معاوية راح الجراجمة يندمجون ويختلطون بسكان الجبل الذين كانوا من النصارى الموارنة الذين كانت لغتهم لغة آرامية. وخلال هذه الفترة بدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم.

ففي أيام معاوية سنة ٦٧٧ نظم جراجمة اللكام الموارنة بمساندة الدولة البيزنطية حملتهم الكبرى التي أحكمت التلاحم بين موارنة لبنان وموارنة سورية في جيش واحد وثورة عارمة واحدة مسلحة وحملة عسكرية موحدة ومنظمة استولت على البلاد وخاصة الجبال من اللكام حتى القدس واتخذت من لبنان مركزاً ومعقلاً رئيسياً لها، ومن هناك أخذت تشن الغارات على الدولة الأموية. وأدت هذه الحملة

إلى تكوين دولة مستقلة بزعامة الموارنة المردة ومساندة البيزنطيين وجماهير غفيرة من الشعب في لبنان وسوريا، وقلب هذه الدولة لبنان وتمتد من جبل اللكام حتى القدس[١].

وتكلّلت هذه الحملة بمعاهدة نظمت العلاقات بين الدولة العربية وعلى رأسها معاوية من جهة والدولة البيزنطية وعلى رأسها قسطنطين الرابع بوغونات واللبنانيّين بقيادة الموارنة المردة من جهة ثانية. وبموجب هذه المعاهدة يؤدي العرب للروم كل سنة ثلاثة آلاف ذهباً وثمانية آلاف أسير وخمسين جواداً. وتعهد العرب أن يؤدوا إلى المردة مالاً أيضاً، كما يقول البلاذري في كلامه عن المعاهدة التي أبرمت بعدئذٍ بين الجراجمة والعرب في عهد عبد الملك[٢].

لقد كان حكم معاوية وسلوكه في تصريف الحكم مثالاً احتذاه خلفاؤه. فقد واجهته مقاومة عنيفة على أيدي الشيعة في العراق وتعصب شديد من قبل أهل الحجاز فاعتمد رعاياه النصارى لتثبيت سلطانه في وجه هذا كله. فتزوج ميسون، وهي نصرانية وقد احتفظت بدينها وولدت له وريثه يزيد. وقد كان شاعر بلاطه الأخطل مسيحياً وكذلك كان طبيبه الخاص. وكان وزير ماله منصور بن سرجون جدّ القديس يوحنا الدمشقي، وكل هذا يظهر أن معاوية كان يحب المسيحيين ويثق بهم، حتى أنه حين كان على فراش الموت، كلّف سرجيوس الراهب والطبيب النسطوري بتسيير دفة الحكم حتى عودة ابنه يزيد. وهو كان منحازاً إلى جانب الموارنة ضد أخصامهم اليعاقبة. وظل المسيحيون يسيطرون في البلاد الأموية حتى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥) الذي بدأ بتعريب لغة الدولة ودواوينها.

وفي العام ٦٨٩ أثناء خلافة عبد الملك عاد الجراجمة فاجتاحوا لبنان كما فعلوا أثناء خلافة معاوية وتحصنوا في مرتفعاته الشمالية. وقد قبل عبد الملك أن يدفع ضريبة إلى الامبراطور يوستينيان الثاني وأن يدفع للجراجمة مبلغ ألف دينار كل أسبوع.

---

(١) تاريخ الموارنة، الأب بطرس ضو.
(٢) تاريخ الموارنة، الأب بطرس ضو.

بعد وفاة معاوية

توفي معاوية سنة ٦٨٠ وترك الخلافة لابنه يزيد، كما ترك له معاهدة مع البيزنطيين ومن بقي من الجراجمة في لبنان والسواحل لمدة ثلاثين سنة. فحافظ الأمويون كما حافظ البيزنطيون وجراجمة لبنان على هذه المعاهدة.

ثم حدثت الحروب الإسلامية الداخلية فانهمك المسلمون بشؤونهم الخاصة. وكانت خلافة يزيد بن معاوية قصيرة (٦٨٠ ـ ٦٨٣) ولكنها تسببت في مقتل الإمام الحسين في كِربلاء ثم انتفاضة العراق والحجاز ومبايعة عبد الله بن الزبير بالخلافة.

وتعرضت الخلافة الأموية بعد يزيد إلى خطر الزوال (الصراع القيسي اليمني) ومن خلال هذا التدهور قامت الأسرة المروانية تدعم الخلافة الأموية بوصول مروان بن الحكم إلى الحُكم. ثم تمكن ابنه عبد الملك بن مروان من القضاء على مختلف الفتن والثورات الداخلية وإعادة بناء الدولة من جديد.

هذه الفترة العصيبة التي تعرضت لها الخلافة الأموية (٦٨٠ ـ ٦٩١) كانت مناسبة ينتظرها البيزنطيون للتدخل بقصد استعادة البلاد السورية من أيدي المسلمين. وبالرغم من طلب يزيد بن معاوية تجديد المعاهدة مع قسطنطين الرابع امبراطور بيزنطية فإن رغبة البيزنطيين في استعادة البلاد السورية ظلت قائمة، وظهر ذلك بوضوح حين وصل يوستينيان الثاني إلى عرش بيزنطية (٦٨٥ ـ ٦٩٥). فقد حاول فعلاً تنفيذ الفكرة بالاستيلاء على بلاد الشام معتمداً على ما كان في البلاد السورية من فوضى ونقمة (قيسية ـ يمنية) وجراجمة. فحرَّك جماعات كثيرة من سكان الحدود الشمالية وأرسل معهم فرقة من الجيش البيزنطي. وتمكن هؤلاء بسرعة كبيرة وبمؤازرة الجراجمة من السيطرة الكاملة على سواحل سوريا وجميع المناطق اللبنانية وشمالي فلسطين ومنطقة الجولان. وبدا أن الأمر مقضي للبيزنطيين

بسبب انهماك الأمويين بحروب العراق والحجاز.

وقال البلاذري عن مجيء الجراجمة في عهد يوستينيان الثاني: «فلمّا كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وطلب عبد الملك الخلافة بعده لتوليته إياه عهده واستعداده للشخوص إلى العراق لمحاربة مصعب بن الزبير، خرجت خيل الروم إلى جبل اللكام وعليها قائد من قوادهم ثم صارت إلى لبنان، وقد انضمّت إليها جماعة كبيرة من الجراجمة وأنباط وعبيد أباق من عبيد المسلمين، فاضطر عبد الملك إلى أن يصالحهم على ألف دينار في كل أسبوع، وصالح طاغية الروم على مال يؤديه إليه لشغله عن محاربته وتخوفه أن يخرج إلى الشام فيغلب عليه واقتدى بصلحه بمعاوية حين شغل بحرب أهل العراق، فإنه صالحهم على أن يؤدي إليهم مالاً وارتهن منهم رهناء وضعهم ببعلبك».

لم يطلب الخليفة إبعاد المردة عن لبنان، ولا فكّ الارتباط بين مملكة الروم وبينهم ولكن فقط أن تتوقف غاراتهم على الدولة البيزنطية.

ولكن في تنفيذ المعاهدة ذهب الملك إلى أبعد ما توجبه بنودها وأصدر أوامر بإبعاد اثني عشر ألفاً من المردة عن لبنان. فما هو السبب الذي حدا بالملك البيزنطي إلى ذلك؟ هذا غير واضح في الوثائق والنصوص التاريخية. كل ما يقوله المؤرخ تيوفانس بهذا الشأن «أن الملك بتصرفه هذا، أي بإبعاده اثني عشر ألفاً من المردة عن لبنان أضعف قوة المملكة الرومانية لأن جميع المدن المجاورة للبنان وصولاً إلى أرمينيا الرابعة أصبحت ضعيفة وخالية من السكان بسبب غارات المردة الذين كبتهم الملك. وقد توالت من ذلك اليوم المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب سطوة العرب[1].

وفي السنة الثانية ليوستنيان ذهب الملك إلى أرمينيا فقابل هناك «عسكر المردة، الذي كان قبلاً في لبنان سوراً نحاسياً، فدكّه بيده» بحسب قول تيوفانس.

وهكذا انتهى مصير فرقة المردة الرومية التي كان أرسلها قسطنطين الرابع في

(١) تاريخ الموارنة، الأب بطرس ضو.

سنة ٦٧٧ لمساندة الجراجمة الموارنة مردة سورية ولبنان في زحفهم.

ولما سحب الملك البيزنطي يوستنيان فرقة المردة البيزنطيين من لبنان وسلخها عن المردة الجراجمة الموارنة السوريين واللبنانيين، وقد كانت التحمت معهم التحاماً وثيقاً، لما فعل الملك ذلك أغضب الجهتين معاً: أغضب المردة البيزنطيين لأنهم كانوا أصبحوا والمردة الموارنة جسماً واحداً، وأغضب المردة الموارنة لأنهم شعروا بخيبة أمل عميقة وبالحسرة الأليمة الناجمة عن فقدان دعم متين يهدد غيابه بشتى الأخطار. وشعروا بغضب واشمئزاز لأن تصرف الملك كان بنظرهم خيانة كبرى لقضيتهم ولقضية المسيحية في الشرق وللمملكة البيزنطية ذاتها، كما يقول المؤرخ تيوفانس وغيره من مؤرخي بيزنطية.

أما الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ ـ ٧١٥) فقد عقد النية على أن يتخلص من الخطر الذي كان يهدده من الشمال (الجراجمة) وذلك بتهديم المتّكأ الذي كان يجده الروم في لبنان. فبعث سنة ٧٠٨ أخاه مسلمة على رأس سرية للاستيلاء على مقرهم الجرجومة، ففرّ بعضهم إلى بلاد الأناضول وأذن لبعضهم الآخر في التوطن في سورية ولبنان حيث سمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية المسيحية من دون أن يؤدوا الجزية كما كان يفرض على أهل الذمة. ويقول في ذلك البلاذري:

«ونادى عبد الملك بن مروان في سائر من ضوي إليه، القائد الرومي ـ قائد المردة، بالأمان فتعرف الجراجمة بقرى حمص ودمشق ورجع أكثرهم إلى مدينتهم باللكام، وأتى الأنباط قراهم، فرجع العبيد إلى مواليهم».

وكان من أسباب التقرب المسيحي من الأمويين اختلاف الموارنة المذهبي مع بيزنطية وانتقامها منهم واستقلال كنيستهم.

واتّسم الحكم الأموي على العموم بالتسامح الديني، إلا ما كان من تشديد عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠م) على غير المسلمين فلزم المردة ـ الجراجمة السكينة وأخلصوا الطاعة لسلطة الخلفاء وتفرغوا لحراثة أراضيهم وتربية ماشيتهم، آمنين متحصنين بلبنان. ويظهر أن صعوبة مسالك لبنان وتعذر إحراز الثروة فيه

جعلا سكانه في مأمن من السطو عليهم ومزاحمتهم في امتلاك أراضيه وغاباته، فعاشوا في القرن الثامن وما يليه محافظين على دينهم وشأنهم. وكان الخلفاء الأمويّون يولّون عليهم رجالاً منهم أو ولاة مسيحيين[1]، ويعززون الوحدة بينهم وبين سائر الطوائف.

وقد أسهم المردة ـ الجراجمة خلال خلافتي يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤) وهشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣م) في إطفاء الاضطرابات المشتعلة في العراق. وشملهم الأمويون في هذه الأثناء بالرعاية والامتيازات على الرغم من كونهم مسيحيين.

وعلى أثر انهيار الخلافة الأموية خسرت البلاد السورية مركزها الممتاز وأصبحت مجرد ولاية عباسية حيث استقطبت بغداد الحياتين السياسية والفكرية.

ومع طغيان موجة الفتوحات العربية في سورية الداخلية والشواطىء البحرية وانتشار الدين الإسلامي، ظهر لبنان وكأنه جزيرة مسيحية صغيرة في بحر من الإسلام[2]، فنزحت إلى أقسامه الشمالية جماعات مسيحية من المناطق المجاورة، فالبعض هرب من دفع الجزية أو تجنباً من أن يكونوا مواطنين من الدرجة الثانية، والبعض هرب مما فرضه الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٧١٧ ـ ٧٢٠) من قيود وتمييز بين المواطنين. وهذا التمييز وهذه القيود التي فرضها عمر بن عبد العزيز بشكل تشريع على أهل الذمة كانت الأولى من نوعها، وخلاصتها أنه منع المسيحيين من الوظائف الحكومية العامة وحظر عليهم لبس العمائم وطلب إليهم أن يلبسوا ثياباً ذات زنانير من جلد تميّزهم عن سائر المواطنين، وأن يركبوا الدابة دون أن تتسرج أو أن يكون عليها بردعة، وألاّ يبنوا كنائس وأن تكون صلواتهم منخفضة لا تسمع في الخارج. وهؤلاء النازحون إلى شمال لبنان اندمجوا بالطائفة المارونية.

ومن جملة العائلات اللبنانية العريقة التي ترجع بنسبها إلى عائلات في حوران آل الخازن الذين يدّعون أنهم من الغساسنة (أي من عرب الجنوب)، وآل مَلْحَمة

---

(١) تاريخ سوريا، يوسف الدبس.
(٢) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

الذين يدعون أيضاً أنهم من عرب الجنوب وأن جدودهم أتوا إلى العاقورة عن طريق دمشق.

وتقول بعض الروايات أن أشهر العائلات المارونية قدمت من بلدة صدد (الوارد ذكرها في سفر العدد ٣٤: ٨ وتقع على بعد ٣٥ ميلاً جنوبي شرقي حمص) التي لا تزال إلى يومنا الحاضر بلدة سكانها من المسيحيين اليعاقبة. ومن هذه الأسر عائلة السمعاني وعوَّاد ومسعد والشدياق وثابت والدبس[١].

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

الفصل الثاني

لبنان والخلافة العباسية

كان من الأسباب الداخلية لانهيار الخلافة الأموية عام ٧٥٠ ضعف الخلفاء الأخيرين وعدم كفاءتهم في الحكم وسوء تصرفهم. وكان من الأسباب الخارجية التي عملت على تقلّص ظلّ الأمويين تكتّل الأحزاب المناوئة لهم مثل: العلويين والعباسيين وأهل العراق والفرس وغيرهم من الفئات الناقمة. أما العباسيون، وهم من أبناء العباس عمّ النبي، فقد ادّعوا بأنهم أحق بالخلافة من بني أميّة. أما الشيعة، اتباع علي، فقد كانوا يعتبرون الخلفاء الأمويين في دمشق مغتصبين لا عهد لهم ولا ذّمة. وقد وقع التنازع على الخلافة بين علي زوج فاطمة بنت النبي محمد وبين معاوية الأموي حاكم سوريا. فأدى ذلك التنازع إلى قيام «شيعة» في الإسلام وانقسم القوم بين «السنّة» في سوريا وعليها معاوية، وبين «الشيعة» في العراق وعليها علي. وقد كان أتباع علي على جانب من القوة والمنعة في العراق حيث اتّخذ علي الكوفة مقراً لخلافته، إلى ذلك فإن العراقيين نقموا على إخوانهم السوريين لانتقال مركز الخلافة من العراق إلى دمشق.

وهكذا نرى أنّ السنّة والشيعة هما الفرقتان الكبيرتان اللتان انقسم المسلمون إليهما حول الخلاف الذي نشب بعد وفاة النبي محمد بشأن من سيخلفه في الأعمال فقط، وليس في النبوّة لأنه خاتم الأنبياء.

وكانت الشيعة تقول أن الخلافة من حقّ علي، صهر النبي ومن حقّ أبنائه من بعده. وفي نظرهم أن الخلفاء الشرعيين هم: علي وأبناؤه ويفضلون أن يسموهم أئمة. وجميع الخلفاء الراشدين، باستثناء علي طبعاً، والأمويون والعباسيون هم في نظرهم خلفاء مغتصِبون غير شرعيين.

أما السنّة فينظرون إلى الخليفة على أنه الرئيس الزمني للمسلمين، بينما تنظر إليه الشيعة على أنه بالإضافة إلى كونه الرئيس الزمني، القائد الديني والروحي، وقيادته وسلطته مستمدتان من الله لا من إجماع الناس على انتخابه. وعليه فيكون

أئمة الشيعة من أبناء علي وفاطمة (ابنة النبي محمد)، في نظر أتباعهم، خلفاء يتمتعون بسلطة خفية سماوية يتوارثونها أباً عن جد.

ولم تعترف الشيعة في العراق بمعاوية خليفة وبايعت الحسن بن علي. لكن معاوية تمكن من استرضاء الحسن فلم يزاحمه على الخلافة.

توفي الحسن فبايعت الشيعة أخاه الحسين. ولما توفي معاوية سنة ٦٨٠ وخلفه ابنه يزيد الأول أبى الحسين الاعتراف به وتحرّك هو وأنصاره في العراق فأرسل يزيد عليهم جيشاً التقى بهم في كربلاء حيث دارت معركة قتل فيها الحسين، وذلك في ١٠ تشرين الأول سنة ٦٨٠م، ١٠ محرم سنة ٦١ هجرية وهو يوم عاشوراء الذي يستمر الشيعة في إحيائه حتى اليوم.

لم تُسلِّم الشيعة بالأمر الواقع بعد مقتل الإمام علي ومقتل ابنه الجسين. وكمنت النار تحت الرماد في العراق حتى أثارها رجل شيعي فارسي اسمه أبو مسلم الخراساني. وقد تمكّن من جمع الأنصار وإشعال فتيل الثورة على الأمويين. ونودي بالخلافة لحفيد من آل العباس عم النبي محمد وبويع في الكوفة سنة ٧٤٩م.

وما إن تمّ النصر للثائرين واستلم حفيد العباس أبو العباس مقاليد الخلافة حتى أشعل حرباً لا هوادة فيها على الأمويين فعاملهم معاملة أعداء مغلوبين وبطش بهم بطشاً مهولاً. فإن عبد الله بن علي، عم العباس، الذي كان يقود الجيش الثائر ضد بني أمية دعا قرابة ثمانين رجلاً من أمراء الأمويين إلى مأدبة أقامها لهم بالقرب من يافا، وبينما هم يأكلون أطلق عليهم رجاله فأعملوا فيهم السيوف وقتلوهم جميعاً.

ولم ينج من العباسيين إلا أمير أموي واحد هو عبد الرحمن حفيد هشام، عاشر الخلفاء الأمويين الذي كان في العراق، فلما بلغته أعمال العباسيين ونيتهم في إفناء الأمويين، فرَّ هائماً على وجهه جنوباً حتى بلغ فلسطين، ومنها قطع إلى افريقيا، فجند العباسيون جواسيسهم يطاردونه. واستمر يتنقل متخفياً من بلد إلى بلد حتى وصل به المطاف بعد خمسة أعوام إلى مدينة سبتة ومنها أبحر إلى الضفة

المقابلة. وما إن عرف الجيش بقدومه وتعرّف إليه حتى انضم إليه وبايعه بالزعامة. واستلم عبد الرحمن الحكم في اسبانيا، مكتفياً بلقب الإمارة، حتى ارتقى العرش عبد الرحمن الثالث سنة ١٤٣ فنادى بنفسه خليفة.

وهكذا أصبح في بغداد خلافة للعباسيين وفي إسبانيا خلافة للأمويين.

علاقات لبنان بالعباسيين

بعد هذه اللمحة التاريخية عن قيام الدولة العباسية وسيطرتها على البلاد السورية، نعود إلى لبنان لنرى كيف كانت العلاقات بين لبنان والعباسيين، وفي هذا المجال يقول الدكتور فيليب حتي: «لم يفلح العباسيون في استمالة أهل سورية إلى جانبهم ولم يستطيعوا أن يظفروا بولائهم لهم. فقد ظلت هذه المنطقة بكاملها بما فيها فلسطين، في حالة غليان واضطراب، إن لم نقل في حالة ثورة»[١].

لقد دخل العباسيون بلاد الشام في بدء خلافتهم عام ٧٥٠م. حيث تولى هذه البلاد عم الخليفة عبد الله بن علي، فاتبع سياسة القوّة فقامت بوجهه الثورات مثل: ثورة المقدم الياس في البقاع سنة ٧٥٣م وثورة المنيطرة التي قادها رجل لبس التاج وتسمّى بالملك وأظهر الصليب (٧٥٨ ـ ٧٧٩). وكانت منطقة بسكنتا منطلق الثورات والتحركات في وجه العرب. فقد شعر اللبنانيون بضغط العباسيّين عليهم إذ ألغوا الامتيازات التي خصّهم بها الأمويون وأقفلوا البحر لأنهم اعتبروه منطقة حرب كونه منفذاً للسفن البيزنطية واضطهدوا المسيحيّين واليهود وقتلوا الكثيرين منهم ولم يستطيعوا استمالة السوريين، وخير دليل على نقمة السوريين على العباسيين قول رجل سوري يدعى جعونة للمنصور: «الله أعدل من أن يجمعك علينا والطاعون» فأمر المنصور أن يقتل الرجل فوراً.

ثورة المنيطرة

قامت أولى الثورات في لبنان عام ٧٥٩ ـ ٧٦٠م في بلدة صغيرة في أعالي

---

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

لبنان تدعى المنيطرة القريبة من أفقا. فقد ثار نصارى هذه القرية ضد تعسف عامل العباسيين وجورهم في فرض الضرائب عليهم واستولوا على عدة قرى في البقاع وتقدموا نحو بعلبك التي كانت مقرّاً لعامل العباسيين. وقد كان زعيم هذه الثورة شاباً جبلياً عملاقاً. وكانت ردة الفعل عند العباسيين عنيفة، فالعامل العباسي، صالح بن علي، وهو شقيق عبد الله القائد العام للجيوش العباسية، هاجم القرى الثائرة في منطقة المنيطرة وشتّت سكانها في طول البلاد وعرضها ولكنه لم يتعرض لدينهم بسوء. وقد كان لهذا العمل العنيف أثر سيّىء في نفس الإمام الأوزاعي، الفقيه المحدث المشهور فكتب للخليفة قائلاً: وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه فمتى قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالِهم، وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى. وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به، وأحق الوصايا أن تحفظ وترعى وصية رسول الله فإنه قال: «من ظلم معاهداً وكلّفه فوق طاقته فأنا حجيجه».

وروى ابن عساكر ثورة المنيطرة فقال: إن الروم دخلوا طرابلس في زمان واليها رياح بن عثمان حين كان عاملاً لصالح بن علي الهاشمي أمير الشام ومصر. ثم ظهر رجل من أهل المنيطرة وذلك في سنة ١٤٢ أو ١٤٣ هجرية (٧٥٨ أو ٧٥٩ ميلادية) وسمى نفسه الملك، ولبس التاج وأظهر الصليب. واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم، ثم استفحل أمرهم فسبوا بعض القرى في البقاع فقتلوا المسلمين. وكتب الملك بندار إلى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم ويأمرهم بقتالهم، فتأهّبوا وقاتلوهم في أسفل جبل لبنان، ثم أظهروا الهزيمة، فأمضوا في الطلب، فلما بعدوا عن الجبل، كرّت عليهم خيل بعلبك، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وانهزم بقيتهم، ثم هاجموهم في قلعتهم فظهروا عليهم وامتلكوها منهم، وهرب بندار إلى ملك الروم. فكتب حينئذٍ صالح بن علي يأمر بإخراج من بقي في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام».

وهذه الرواية لابن عساكر لا تشير إلى موقف الإمام الأوزاعي واعتراضه على

العباسيين.

أما البلاذري فقد روى ثورة المنيطرة كالآتي: خرج بجبل لبنان قوم شكوا عامل خراج بعلبك، فوجّه صالح بن علي بن عبد الله بن عباس من قتل مقاتلتهم وأقرّ من بقي منهم على دينهم وردّهم إلى قراهم، وأَجْلَى قوماً من أهل لبنان. وأن الأوزاعي كتب إلى صالح معترضاً.

حركة المقدم الياس

وعن حركة المقدم الياس ورد في «خطط الشام ـ الجزء الأول»، أن ثورة حدثت في لبنان وأن «رجلاً هو المقدم الياس نهب البقاع ونهب قراه وأهله، فأرسل ولي الشام، من قبل أبي العباس إليه رسلاً لعقد الصلح، ثم هاجمه في قرية المرج وقتله. وبعد رجوع عسكر الشام رجع أصحابه ودفنوه بقرب الجامع الذي في القرية. ثم أُقيم مقدماً على الجيش سمعان ابن شقيقه المعتدل، فسارت إليه عساكر الشام، وكانت الحرب بينهم في قرية الشوير، فانكسر العسكر الشامي وارتدّ راجعاً. وبحسب هذه الرواية، يُستدلّ أن الجبليّين انتصروا في الشوير[1] وأن تسمية بلدة قب الياس البقاعية بهذا الاسم ربما تعود إلى أن مقدم الجبليين الياس دُفن في قبر في المرج فأصبح المكان معروفاً باسم «قبر الباس» ثم حرّف إلى قب الياس.

وقد تعددت روايات المؤرخين حول حركة المقدم الياس ووقع بعضهم في الخطأ نظراً للالتباس في الأسماء المتشابهة.

فقد جاء في كتاب «الغرر الحسان في تاريخ حوادث الزمان» للأمير حيدر شهاب: «في سنة ٧٥٢م (١٣٥هـ) سار المقدم الياس إلى البقاع فنهب تلك القرى وقتل أهلها. فأرسل صاحب الشام إليه رسولاً ليعقد معه صلحاً. ثم أرسل فكبسه على حين غفلة وقتله. وبعد رجوع عسكر الشام رجعت القرية تسمى قب الياس. ثم أُقيم مقدماً على الجيش ابن أخت المقتول (سمعان) فثارت عليه عساكر الشام ووقعت الحرب بينهما في قرية المروج شرقي قرية الشوير. وكانت الكرة على

(١) لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، علي مكي.

جيوش الشام فارتدت راجعة ودَام القتال بين عساكر المسلمين ونصارى تلك البلاد مدة طويلة».

والياس هذا هو غير القائد الرومي الذي قتله سحيم بن المهاجر حيلة في أيام عبد الملك بن مروان. وهو غير أمير المردة الذي يقول الدويهي أن عسكر الروم قتله. فالأمير المذكور قتل حوالي سنة ٦٨٦م وكان اسمه يوحنا بينما الأمير المقصود في «الغرر الحسان» قتل سنة ٧٥٢ وكان اسمه الياس.

والياس هذا هو المقصود في تاريخ ابن القلاعي وزجليته حيث قال: «وكان أميرهم يسكن كل قرية بسكنتا. ولكثرة رجاله وأبطاله تعظم بذاته ونزل إلى أرض البقاع، نهبها وقتل بها كثيرين. ومكث أياماً في قرية قب الياس حدود البقاع. فلما بلغ خبره سلطان الإسلام في الشام، وهو عبد الملك بن مروان المتملك سنة ٦٧٥ في أيام يوستنيان، أرسل يخادعه بلين الكلام وأهداه هدية كأنه يريد مصادقته. وكان قصده اصطياده. ولم يزل يمكر به حتى تمكّن من قتله. وذلك أن جنود الملك كانت تؤاكله وتشرب معه الخمر، وأتوه بزانية ترقص قدامه إلى أن نفثت ألحاظه من الخمر. وحينئذٍ وثبوا عليه وقتلوا من عسكره كثيرين وأحرقوا القرية وأبعدوا الموارنة عن البقاع».

ويقول الأب بطرس ضو في كتابه «تاريخ الموارنة» الجزء الثالث: «لقد أخطأ ابن القلاعي أو الناسخ في تعيين اسم «سلطان الإسلام في الشام» الذي عمل على قتل هذا الأمير. فالأمير موضوع الكلام هنا هو ذاته الذي يروي صاحب «الغرر الحسان» للأمير حيدر شهاب، خبر قتله سنة ٧٥٢ بدسيسة من صاحب الشام. فالأمير الذي قتل في أيام عبد الملك بن مروان هو الذي يدعوه الدويهي يوحنا وينسب قتله إلى رسول يوستنيان الأخرم، وهو الذي يروي البلاذري خبر قتله على يد سحيم بن المهاجر في زمان عبد الملك بن مروان. ومن ثم أخطأ القلاعي في القول أن عبد الملك بن مروان كان سلطان الشام الذي عمل على قتل أمير المردة في قبّ الياس فعبد الملك مات سنة ٧٠٥م بينما الأمير قتل في قبّ الياس سنة ٧٥٢م.

ويتابع ابن القلاعي روايته فيقول: «... وكان ابن أخت الأمير أحد مقدمي العسكر يسمى سمعان. وكان رجلاً بطلاً شجاعاً صاحب مروءة ونخوة. ولم يكن راضياً بأعمال خاله وفواحش بذخه. وكذلك لما وقعت الواقعة هرب مع جملة من المقدمين ولم يحاموا عن أميرهم لشدة غيظهم منه بل رجعوا بعد قتله ودفنوا جسده في قب الياس.

وهذه الوقائع أوردها ابن القلاعي في زجليته المشهورة حيث قال:

سكن الملك في بسكنتا — وأرسل العساكر في بغته
نهب البقاع في فرد نكته — وقتل رجاله مع النسوان
وطلع سكن في قب الياس — ورتب عساكر مع حراس
والبقاع تحت حافر خيله انداس — وطلعت أخباره للسلطان
بعت له خلعه مع قُصاد — واطمَّن وأكل معهم زاد
وعساكر وراهم بتتجردِ — كبسوه في تلك الأطمان (الاطمئنان)
قتلوه وانتقل مع العساكر — وانقتل كثير من الأوخار (الآخرين المعتدين)
وأعطون (أعطوهم) في قب الياس نار — وملكون (ملكوهم) البقاع في تلك الآن
سبب ذلك كان المسكر — ورقصة صبية في المحضر
سمعوا مقدمين العسكر — وخلعوا الطاعة مع الإيمان
تخلوا عنه حتى قتلوه — وجسده في قب الياس دفنوا
واسمه في التواريخ ليس (الياس) كتبوه — لأجل أنه مات وهو سكران

وبعد قتل الياس أمير المردة الموارنة في قب الياس خلفه ابن أخته الأمير سمعان الذي أقام في بسكنتا أيضاً. وفي عهد هذا الأمير تجددت المعارك بين الموارنة وبين أرسلان ودامت أكثر من ثلاثين سنة.

ويصف ابن القلاعي إحدى المعارك التي شارك فيها الأمير سمعان فيقول: «... ثم إن العسكر والمقدمين صعدوا إلى الجبل. وكانت الإسلام تزحمهم

كثيراً. وتواقعوا في البقعة المعروفة بالمروج. فظفر المقدم سمعان برأس قواد العسكر الإسلامي وفتك بعسكره وهزمهم. ولم تزل الحروب في ذلك الحين تزيد ما بين الموارنة والإسلام من كل الجهات إلى نحو ثلاثين سنة. وكانت الموارنة على الأغلب غالبة. فحدث من ذلك أن الطرق بطل سعيها، واستعصت الجبال كلها. فعجزت الموارنة عن القيام في حصن انطلياس كونه طرف البلاد فتركوه وأتوا إلى ناحية نهر الكلب وابتنوا فوقه حصناً استحصنوا به.

وعنده أيضاً جرت واقعة هائلة جداً وانسمع صوت بنادقها وصراخ أبطالها في قرية بحرصاف. وكان المقدم سمعان في بكفيا يومئذٍ. ولما طرقت مسمعه أصوات الحرب انحدر إليهم حالاً ومعه نحو ألف وخمسمائة رجل. فأدركوا الأعداء عند نهر الكلب وداروا حولهم دورة الحرب ما بين طعن وضرب إلى أن أفنوهم بحدّ السيف».

أما زجلية ابن القلاعي حول هذه المعارك جاءت كالآتي:

إبـــن أخـــتـــه الـــمـــقـــدم	أحـــمـــاه ولـــيـــس انـــتـهـــان
فـــي الـــمـــروج قـــهـــر الـــشـــعـــبـــان	قـطـع رأس بـاش عـسـكـر الـسـلـطـان
ثـلـثـيـن سـنـة ثـبـتـوا فـي الـحـرب	يـمـيـن وشـمـال شـرق وغـرب
ولا قـط ارتـجـعـوا عـن الـضـرب	مـنـصـوريـن فـي كـل أوان
ولأجـل الـمـحـاصـر والـحـروب	انـقـطـعـت عـنـهـم الـدروب
مـن أنـطـلـيـاس يـدو بـالـهـروب	تـركـوا الـقـلـعـة والـبـسـتـان
خرجوا وعـاصـوا عـلـى نـهـر الـكـلـب	وابـنـوا بـرج مـن نـحـو الـغـرب
ومن بـحـرصـاف قد سـمـعـوا الـضـرب	مـدافـع تـزعـق فـي الـحـيـطـان
سـمـعـان كـان فـي بـكـفـيـا	سـمـع دوي الأوديـا
ركـب فـي ألـف وخـمـس مـيـه	وجـاهـم كـالـصـقـر الـجـيـعـان
وجـد الإسـلام مـن فـوق وأسـفـل	واحـتـاطـهـم سـمـعـان فـي الـخـيـل
وأبـلاهـم فـي شـوم الـلـيـل	ولا خـلّـى مـنـهـم إنـسـان

العباسيون والاستيطان

لقد نبهت حركة المقدم الياس (٧٥٣م) وثورة المنيطرة بعدها (٧٥٨ أو ٧٥٩) العباسيين إلى نقطة ضعف كبرى في دولتهم وهي وجود جماعات مقيمة في الجبال اللبنانية تتمتع بالشدة والصلابة وعدم الموالاة للدولة وإلى احتمال قيام تحالف بينهم وبين البيزنطيين. لذلك عمد أبو جعفر المنصور، فور الانتهاء من معالجة ثورة المنيطرة إلى ملء الفراغ الذي أحدثه إجلاء السكان من لبنان بتشجيع القبائل العربية على الاستيطان في الجبال اللبنانية.

التنوخيون وأصلهم

وكانت القبيلة الأولى التي انتقلت إلى لبنان هي قبيلة التنوخيين سنة ٧٦٣م. وقد وقع الخيار على التنوخيين لأنهم قبائل لخمية كانت تقيم في البقاع وهم من فصائلهم.

وعن أصل التنوخيين يقول الشدياق في أخبار الأعيان: «هؤلاء الأمراء ينتسبون إلى الأمير تنوخ بن قحطان بن عوف بن كندة بن جندب بن مذحج بن سعد بن طي بن تميم بن النعمان بن المنذر ملك الحيرة المعروف بابن ماء السماء اللخمي».

جدّ التنوخيين إذاً هو المنذر ملك الحيرة في جنوبي العراق. والمناذرة ملوك الحيرة من بني لخم. ولخم قبيلة عربية من اليمن أصلاً وتنتسب إلى العرب العاربة أو العرباء التي منها اللخميون وبين العرب المستعربة فالحجازيون والنجديون وجميعهم من سلالة عدنان وهو من سلالة إسماعيل (ابن إبراهيم الخليل من جاريته هاجر) فكأنهم أغراب دخلوا البلاد وتجنسوا بجنسيتها[١].

---

(١) تاريخ العرب، فيليب حتى.

ودخلت النصرانية إلى أسرة المناذرة ملوك الحيرة في عهد هند أم عمرو في القرن السادس، وفي زمن النعمان الثالث الملقب بأبي قابوس (٥٨٠ ـ ٦٠٢) وهو ابن المنذر الرابع.

ويقول الشدياق في «أخبار الأعيان»: «.. ومنهم من قال إن بني تنوخ، وهم قبائل بهراء وتنوخ وتغلب، كانوا نصارى منذ أن كانوا في اليمن: واعلم أن تنوخ اسم جنس لثلاث قبائل من نصارى العرب بهراء وتنوخ وتغلب اجتمعوا في البحرين وتحالفوا على التناصر وأقاموا هناك فسموا المكان الذي اجتمعوا فيه تنوخاً».

والنعمان الثالث، ابن المنذر الرابع وشى به زيد بن عدي فألقاه أبرويز تحت أرجل الفيلة فوطئته حتى مات. عندئذٍ تولى قيادة عشيرته ابنه النعمان الأصغر. ولما ظهر الإسلام جاءت قبيلة منهم أي من سلالة النعمان وسكنت البرية التي بين حلب ومعرفة النعمان في سورة. وارتفع مقام قحطان في تلك القبيلة، وولد له هناك اسمه تنوخ فأقام عليهم»[1].

وظلوا نصارى حتى أيام المهدي الخليفة العباسي في النصف الثاني من القرن الثامن. ولما علم المهدي أنهم نصارى اضطرهم إلى أن يسلموا فامتثلوا، وكانوا خمسة آلاف رجل[2].

رحل التنوخيون من جوار معرة النعمان إلى الجبل الأعلى حيث عمروا القرى والمزارع. ويروي الشدياق في «أخبار الأعيان» أنه «ذات يوم تعرض لبعض حريم التنوخيين «المشد» الذي ولاه عليهم والي حلب، فوثب عليه رجل منهم يسمى نبا فقتله وفر بعياله إلى كسروان حيث عمرّ له قرية هناك سميت «برج نبا» وتوطنها. ولما طلبه نائب حلب من عشيرته خافوا منه ورحلوا قاصدين موضع نبا».

وفي سنة ١٢٠هـ أتى الأمير تنوخ الملقب بالمنذر بعشيرة نبا ومعه تلك القبيلة وأتى معهم بعض أمراء القبيلة وكانوا عشر طوائف فوجههم نبا إلى الديار الخالية من السكان. فتوطن الأمير تنوخ حصن سرحمور وتوطن الباقون في البلاد.

---

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.

(٢) تاريخ العرب، فيليب حتى.

وكان الأمير تنوخ يحكم فيما بينهم وبنوه من بعده[1]».

هذه الوقائع حصلت في القرن التاسع. وظل التنوخيون في جبال الغرب والمشرفة على بيروت يؤازرون الإرسلانيين.

وفي أواسط القرن السابع عشر قام رجل منهم يكنى بأبي اللمع وقطن كفر سلوان في المتن فحدث بينه وبين مقدميها بني الصواف عداوة فتغلب عليهم وفاز بإمارة المتن وهو جدّ الأمراء بني اللمع الذين حملوا اسمه. وصاروا موارنة في أوائل القرن الثامن عشر. وهكذا فإن التنوخيين هم أجداد اللمعيين.

وفي جبال الغرب حيث أقام التنوخيون، أجداد اللمعيين اتخذوا مقراً لهم في سرحمور وعرمون في قضاء عاليه والتحموا مع الإرسلانيين وشدوا أزرهم وكونوا معهم جبهة واحدة لمقاومة وصدّ الموارنة المردة. وكان ذلك من أسباب مجيئهم إلى لبنان مع القبائل التي رافقتهم من أواسط سورية تلبية لمناشير الخليفة العباسي هارون الرشيد.

وخلاصة القول أن الأمراء الإرسلانيين والأمراء اللمعيين فرعان من أصل واحد هو المنذر ملك الحيرة المعروف بابن ماء السماء اللخمي، غير أن الأمراء الأرسلانيين قدموا إلى لبنان سنة ٧٥٨م. في حين أن التنوخيين القيسيين الذين منهم الأمراء اللمعيون أتوا سنة ٨٢٠م إلى لبنان. «فهذان الفرعان اللذان قدما إلى لبنان في القرن الثامن والتاسع لمناوأة المردة والموارنة وللقضاء عليهم ابتدآ منذ القرن العاشر يعترفان بالواقع اللبناني واندمجا به تدريجياً وانصهرا في الكيان اللبناني الذي أسّسه الموارنة ـ المردة منذ القرن السابع. وبلغت قوة الانصهار من الشدة درجة أصبح معها الأرسلانيون مع الزمن من أشد الناس ولاءً للبنان الوطن وأصبح معها التنوخيون القيسيون اللمعيون لا لبنانيين فحسب بل موارنة أيضاً إذ أنهم منذ بداية القرن الثامن عشر انتقلوا إلى المارونية»[2].

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.
(٢) تاريخ الموارنة، الأب بطرس ضو،

آلية وصول الإرسلانيين إلى لبنان

وجاء في كتاب «أخبار الأعيان» للشدياق في مقدمة أخبار الأمراء الأرسلانيين: «إن الأمير أرسلان أمير الجيش نهض بسوابق العشيرة إلى وادي التيم ونزل في الحصن المعروف بحصن أبي الجيش منتظراً قدوم أخيه بباقي العرب، ثم قدم الأمير منذر بباقي العرب... ثم تفرقا هما وعشائرهما في البلاد فعمروا جبال بيروت الحالية وتحضروا. فاستوطن الأمير المنذر بن مالك في حصن سلحمور (سرحمول حالياً) وأخوه الأمير أرسلان في سن الفيل، والأمير حسان بن خالد في طردلا، والأمير عبد الله بن النعمان بن مالك في كفرا، والأمير فوارس بن عبد الملك في أعبيه (عبيه حالياً) وتفرق باقي المقدمين وعشائرهم في البلاد وكانوا اثني عشر مقدماً. وأخذوا يغزون المردة ويحافظون على أبناء السبيل».

ويستدل من هذا النص أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور أرسل بني أرسلان إلى «جبال بيروت الخالية» لتطويق المردة الموارنة وقهرهم وتملك بلادهم. فأقام الأمراء الأرسلانيون في مراكز تمتد من سن الفيل حتى عبيه. وهذا يدل على أن حدود بلاد المردة الموارنة في أواسط القرن الثامن كانت تمتد حتى خط سن الفيل - عبيه، وكان هذا الحد الجنوبي. ويتفق ذلك مع ما يقوله ابن القلاعي من «أن بلاد الموارنة كان حدّها الجنوبي عند حدود بلاد الشوف».

وتتفق وثائق الأمراء الأرسلانيين مع قول ابن القلاعي حول سطوة الموارنة في ذلك الزمن. فابن القلاعي يقول «إن الموارنة كانوا في أوائل الفتح العربي يحكمون باقتدارهم في الجبال والسواحل التي تجاورهم... وينتصرون لكل من يقبل إليهم». وتؤيد ذلك وثائق بني أرسلان وقد جاء فيها «أن قوة مردة لبنان وغزواتهم قد اتصلت إلى بلاد حمص وحماه وغيرها. ولم يتمكن الإسلام من بلادهم لطوقهم وتحصنهم في الجبال العاصية».

وبينما كان المردة الموارنة يشتبكون في المعارك مع بني أرسلان على جبهة سن الفيل - عبيه الجنوبية، وبينما كانت حملاتهم تتوغل حتى حمص وحماه شمالاً، وبينما كان موارنة بسكنتا وبلاد كسروان يشنون الهجوم تلو الهجوم على

البقاع الجنوبي، كان موارنة المنيطرة وبلاد جبيل يهاجمون البقاع الشمالي ومنطقة بعلبك حيث اشتبكوا هناك في معارك ضارية مع جنود صالح بن علي حسب البلاذري. ولما كان صالح بن علي تجاوز حدود الشريعة في القتال والانتقام من الموارنة احتج الإمام الأوزاعي بشدة لدى الخليفة.

وقد ورد في وثائق الأمراء الأرسلانيين «أنه جرت مواقع عديدة بين الأميرين منذر وأرسلان وبين المردة أشهرها واقعة نهر الموت الذي سمي ذلك النهر بها لكثرة القتلى فيه، ومنها أيضاً واقعة إنطلياس التي قتل فيها من الفريقين أكثر من ثلاثمائة رجل، وكان النصر فيها للأميرين منذر وأرسلان. وانكفأت المردة عن ساحل بيروت».

وفي سنة ٨٠٠ توفي الأمير المنذر أخو الأمير أرسلان ودفن في سلحمور. فأجمع أمراء وعشائر بني أرسلان على إقامة الأمير مسعود ابن الأمير أرسلان أميراً على بني أرسلان.

وهكذا ابتدأ القرن التاسع والأمير مسعود قائد الأرسلانيين وعاصمته الشويفات والأمير سمعان قائد المردة في كسروان وعاصمته بسكنتا.

يقول إسماعيل حقّي في كتابه «لبنان ـ مباحث علمية واجتماعية» في الفصل المخصص لتاريخ التنوخيين: «وممّا لا خلاف فيه وعليه الإجماع أن التنوخيين مالأوا العباسيين فأحلّهم أبو جعفر المنصور سنة ٧٦٣ غربي لبنان، وعوّل عليهم في صد غارات الروم وأهالي الجبل. وقد نزل الأمير أرسلان أحد رؤسائهم محلة رأس البيدر، وقطن الباقون أرباض بيروت وصيدا».

وقد لخّص البلاذري سياسة أبي جعفر المنصور بالتالي: «لمّا وُلي أبو جعفر المنصور تتبّع حصون السواحل ومدنها فعمّرها وحصّنها، وبنى ما احتاج إلى البناء منها. ثمّ لما استخلف المهدي استتمّ ما كان بقي من المدن والحصون، وزاد في شحنها».

وهكذا مع التنوخيين بدأت أول إمارة عربية إسلامية، هي الإمارة التنوخية

التي ظلت مستمرة حتى العهد العثماني، أي نحو ثمانية قرون متواصلة. وإلى جانب هذه الإمارة قامت مقدميّة الموارنة في الجبال الشمالية وكسروان. وابتدأت بذلك تظهر معالم الكيان الذاتي في لبنان.

وتابع العباسيون اهتمامهم بتشجيع الاستيطان في لبنان، فقد ورد في «أخبار الأعيان» للشدياق أن «هارون الرشيد أرسل منشوراً إلى أمير الثغور الشامية وإلى باقي عمال الشام أن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكناه لتشتدّ قوة أمرائه على أهل العاصية (كسروان) ولعلّ هذا الطلب والاستنفار للقبائل العربية كانا ناجمين عن المعركة التي حدثت بين موارنة كسروان والأمير مسعود التنوخي في سن الفيل، إذ اضطر الأمير مسعود بعد ذلك إلى ترك سن الفيل والانتقال إلى الشويفات (٧٦٩م)».

ويبدو أن تشجيع الدولة للاستيطان دفع قبيلة ثانية من التنوخيين للانتقال إلى لبنان فانتقلت جماعة تنوخية ثانية إلى لبنان سنة ٨٢٠ واستقرت في قصر نبا. وبذلك أصبحت القبائل التنوخية مسيطرة على الساحل والجبل الأوسط والداخل. وأصبح الأمير مسعود متزعماً الإمارة التنوخية باتفاق كلمة الأمراء. وقد اشترك هذا الأمير مع الخليفة المأمون في محاربة مصر، ونجم عن ذلك أن الخليفة المأمون أقطعه بالإضافة إلى إمارته في بيروت والغرب وصيدا مقاطعة صفد، فأصبح سنة ٨٣١م أمير التنوخيين في لبنان.

وبالرغم من الأزمات الخطيرة التي مرّت بها الخلافة العباسية، ظلّ العباسيون يهتّمون بالإمارة التنوخية في لبنان لأن التنوخيين كانوا دائماً موالين لسياسة الخليفة في بغداد.

وقد كان انتصار الأمير النعمان بن عامر التنوخي بالتعاون مع أماجور التركي على ثورة عيسى بن الشيخ الشيباني دليلاً على هذا الولاء، وكافأته بغداد بجعله أمير الدولة.

وجعل النعمان مركزه مدينة بيروت وحصّن سورها وقلعتها، وبنى فيها، فأصبحت بيروت عاصمة التنوخيين منذ سنة ٨٧٥. وبينما كانت مصر تنفصل عن

بغداد وتستقلّ تحت حكم أحمد بن طولون منذ سنة ٨٦٨م، عمد الجبليون من جبال لبنان المشرفة على بيروت إلى الهجوم على المدينة. ويبدو أن هذا الهجوم كان مباغتاً وعنيفاً إذ جرت المعركة بينهم وبين النعمان عند نهر بيروت، ودامت أياماً انتصر بعدها النعمان انتصاراً ساحقاً جعله يرسل رؤوس القتلى والأسرى إلى بغداد، فأكرم موسى بن بغا رسله وسرّ بظفره وكتب المتوكل إليه كتاباً يمدح شجاعته ويحرّضه على القتال، وأقرّه على ولايته تقريراً له ولذريته، وأرسل إليه سيفاً، منطقة وشاشاً أسود (شعار العباسيين) وكتب أخوه الموفق وغيره كتباً يمدحونه بها. وأعاد رسله مكرّمين. فتقلّد الأمير السيف وشدّ المنطقة ولفّ الشاش ودعى لأمير المؤمنين وزينت البلاد والمدن وهادنه الشعراء بالتهاني واشتدّ أمره وعظم شأنه»[1].

وعن هذه الرواية يقول علي مكي: «إنه بالرغم من أهمية هذه الرواية فإنها تشير إلى تحول الإمارة التنوخية إلى إمارة وراثية معترف بها من قبل الخليفة، إلا أنها ضعيفة، لأنها جعلت الحادثة في عهد المتوكل. والمعروف أن المتوكل توفّي سنة ٨٦٢، فتكون الحادثة قد جرت بعد مقتل المتوكل بسبع سنوات، أي في عهد الخليفة الموفق بالله، وممّا يؤيّد هذا الرأي أن موسى بن بغا أصبحت له الكلمة في بغداد سنة ٢٥٦ هجرية وهو الذي أرسل الرسائل والهدايا إلى الأمير النعمان».

وقد ركز الأمير النعمان دعائم أول إمارة لبنانية وراثية في التاريخ الوسيط، إذ حكم من سنة ٨٧٠ إلى ٩٣٦ ميلادية في فترة مضطربة جداً بين قيام الحكم الطولوني في مصر وقيام الحكم الأخشيدي ووصول القرامطة إلى سوريا ولبنان. في كل ذلك تمكّن النعمان من أن يحافظ على كيان إمارته وأن يبقيها بعيدة عن الأخطار.

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.

الفصل الثالث

دويلات الدولة العباسية
وتأثيرها على لبنان

لم تمرّ مئة سنة على الخلافة العباسية حتى أخذت نيران الثورة تندلع في أرجاء الدولة وأخذت الخلافة العباسية تسير بسرعة نحو الضعف والتفكّك وأخذت تظهر هنا وهناك في الشرق والغرب دويلات تركية وفارسية وعربية. فما كان تأثير هذه الدويلات على لبنان؟

الدولة الطولونية

بدأت العناصر التركية بالظهور على مسرح السياسة في بلاد الشام منذ أواخر عهد المتوكل؛ وذلك أن الأتراك كانت قد أصبحت لهم مكانة في بغداد منذ عهد المعتصم. وقد تمكّن التركي أماجور من القضاء على ثورة عيسى بن الشيخ التي قامت في لبنان وسوريا. وأصبح أماجور حاكماً بعدها على بلاد الشام بينما كان الأمير نعمان بن عامر التنوخي يسيطر على لبنان وقسم من فلسطين.

وفي الوقت نفسه تمكن أحمد بن طولون، التركي الجنسيّة، من السيطرة على مصر. ثم انتهز فرصة وفاة والي الشام أماجور ليزحف على فلسطين وسورية ولبنان واتّبع المنطقة بكاملها بمصر مستغلاً ضعف الخلافة المركزية في بغداد وبعد الشقة بينه وبينها. وعندما توفي عامل سورية استولى أحمد بن طولون على فلسطين وداخلية سورية (٨٧٨م) من دون أية مقاومة، فأصبح لبنان بذلك نسبة لعزله عن بغداد ولاية خاضعة لمصر. وقد أرسل أحمد بن طولون جنداً واحتلّ بيروت، وجعل المدينة ميناءً بحرياً ومركزاً لأسطوله. وكان ابن طولون يعتمد في قوّته، التي كان يتحدّى بها سلطة الخلافة في بغداد، على أسطوله الذي عزّزه كثيراً وعلى حرس من الجيش التركي قوامه ٢٤٠٠٠ ألف محارب وعلى جند من الزنوج عدده ٤٠ ألفاً. وقد قبض على المنطقة بكاملها بيد من حديد. وعقد ابنه وخليفته «خمارويه» معاهدة مع الخليفة في بغداد جعل بموجبها مصر وسورية تحت لوائه مقابل جزية سنوية يدفعها إلى الخليفة قدرها ٣٠٠ ألف دينار. وقد كان خمارويه

حاكماً خليعاً مبذراً فأنفق مال الخزينة وتركها على شفير الإفلاس. وبعد فترة وجيزة تميّزت بالفوضى والاضطراب في ظلّ حكم أبيه وأخيه سيبان (٩٠٤ ـ ٩٠٥م) وجّه الخليفة العباسي إليه جيشاً فقهره وأعاد نفوذ العباسيين إلى مصر.

القرامطة

وفي أواخر هذه الفترة السياسية القلقة والمضطربة هاجم القرامطة، الذين كانوا قد أنشأوا لهم دولة مستقلة ذات سيادة على الشاطىء الغربي للخليج الفارسي، بلاد الشام سنة ٩٠١م وخربوا مدينة حمص وغيرها من المدن السورية وكادوا أن يبيدوا أهل بعلبك إبادة تامة. وقد سموا بالقرامطة نسبة إلى زعيمهم حمدان قرمط الذي كان فلاحاً من أهل سواد العراق.

والقرامطة فرقة كبيرة من الشيعة الإسماعيلية وهي فرقة باطنية نظمت نفسها تنظيماً دقيقاً واعتمدت في دعوتها على مساوىء الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي ظهرت تحت الحكم العباسي، ولا تختلف نشأة القرامطة عن نشأة غيرها من الفرق الإسلامية في كونها نتيجة عوامل اقتصادية ونتيجة استياء سياسي في الأوساط الشعبية.

وقد وصل القرامطة إلى لبنان وبلاد الشام أواخر عهد هارون بن خمارويه بن طولون. وكان على رأس القرامطة المهاجمين الشيخ يحيى فاتصلوا بوادي التيم من لبنان حيث كان للتنوخيين مركز قوي. بالإضافة إلى أن مقدم القرامطة كان من بني تنوخ، وهو جدّ بن محمد التنوخيّ(١)، فجرّد حملة عليه والي الشام الطولوني طغج بن جف بعد أن استعان بالحسين بن حمدان التغلبي. وكانت المعركة في وادي القرن الواقع بين لبنان وسورية. فانتصر القرامطة وتنوخيو وادي التيم..

ولكن طغج الوالي الطولوني استنجد بالعباسيين من بغداد وبالمصريين فأنجدوه وتمكّنوا جميعاً من صدّ القرامطة على أبواب دمشق، وقتل يحيى مقدّمهم وتشتّتت جموعهم في المناطق الجبلية المجاورة. ثم تزعّم القرامطة في سوريا

(١) كتاب الدروز، سليم أبو إسماعيل.

«صاحب الشامة» الحسين شقيق يحيى، فجمع القرامطة وحاصر دمشق وأرسل الدعوة إلى البقاع ووادي التيم وجبل لبنان فأجابوه إلى دعوته و«تقرمط» معظم الناس. وسيطر على الشام مصالحة، ثم جعل عاصمته حمص ونادى بنفسه أميراً للمؤمنين وسكّ النقود باسمه فكتب عليها: قل جاء الحق وزهق الباطل. وبذلك يكون «صاحب الشامة» قد أوجد أول حكومة قرمطية في بلاد الشام. إلا أن بعلبك رفضت القرمطية. فقتل «صاحب الشامة» معظم أهاليها. وقتل كذلك والي الشام الطولوني طغج.

وكانت سيطرة القرامطة في هذه الفترة (٩٠١ ـ ٩٠٢)، إيذاناً بانتهاء الحكم الطولوني. ولكن القرامطة اختلفوا مع الدعاة الإسماعيليين في سلمية (شمالي سوريا)، واستغلّ المكتفي العباسي انهيار الطولونيين في الشام وخلاف القرامطة مع الدعاة الفاطميين ليجهّز جيشاً عظيماً من العراق يجتاح به بلاد الشام ويقضي على دولة القرامطة في المنطقة ويعيد البلاد مجدداً تحت الحكم العباسي (٩٠٥م).

إن زوال الدولة القرمطية القصيرة العمر لا يعني زوال الدعوة القرمطية، فقد لجأ المتقرمطون إلى المناطق الجبلية في غربي سورية، ومنها لبنان ليعتصموا بها خوفاً من المطاردة العباسية، ونزلت جماعة منهم في أعالي الشوف وكسروان، فبنوا فيها بلدتهم الأولى عين داره، ذكرى لبلدتهم في الأحساء، والعبادية ذكرى لإحدى دور الدعوة في سواد الكوفة، وعبيه نسبة إلى مياه لبني بكر بن وائل، والمختارة نسبة إلى محلّة كانت لهم في الجانب الشرقي من بغداد، وحماه التي تقع في الجرد الجنوبي من جبل لبنان، ودير كوشه ذكرى لإحدى قراهم التي تقع على نهر العاصي قرب حلب، وزكريت التي تقع قرب عين عار في كسروان، والمتن ذكرى لمركزهم الأول في ما يجاور اليوم إمارة قطر على الخليج الفارسي[١].

وعين الخليفة المكتفي والياً على الشام أحمد كيغلغ سنة ٢١٩ هجرية (٩٠٤ ميلادية)، وكان عليه بالتعاون مع الحسين بن حمدان التغلبي مطاردة القرامطة في

(١) كتاب الدروز، سليم أبو إسماعيل.

بلاد الشام حين ظهورهم، ومحاربة الطامعين بالحكم، والتربّص بدعاة الإسماعيليين، ولكنهما كانا يحاولان الانفصال ببلاد الشام عن الخلافة العباسية. ويبدو خلال هذه الفترة أن تنوخيي الغرب بزعامة الأمير النعمان لم يماشوا القرامطة في دعوتهم وظلّوا على ولائهم للعباسيين بدليل أن الأمير النعمان زوّج ابنه الأمير منذر من أم كلثوم حفيدة هارون الرشيد (٩٢٤ م) حين مرت مع عائلتها ببيروت وأقامت مدة طويلة. ومن هذا الزواج رزق الأمير منذر بولدين هما تميم ومسعود.

وتوفي الأمير النعمان بن عامر، أمير الدولة سنة ٩٣٦م.

الإخشيديون

ينتسب الإخشيديون إلى محمد بن طغج الذي كان والده طغج والياً على الشام في عهد الطّولونيين. وقد استولى محمد بن طغج على مصر والشام وتمكّن من الحصول على لقب إخشيد (لقب فارسي بمعنى أمير الأمراء)، والإخشيديون كالطولونيين من الأتراك. وقد ساعدت الثورات العديدة في مصر وسوريا الإخشيد على وصوله إلى الحكم لمصلحة الدولة العباسية. فلما تمكّن من ذلك، أسّس في مصر دولة منفصلة عن بغداد على غرار ما كان أحمد بن طولون قد عمله من قبل. وساعده في الاستيلاء على البلاد قيام محمد بن رائق في بلاد الشام بحركته الانفصالية عن بغداد. ولكن الإخشيد قضى على حركة ابن رائق وضم بلاد الشام إليه (٩٤١م).

كانت فترة الحكم الإخشيدي فترة اضطراب متواصلة في بلاد الشام (٩٣٥ ـ ٩٦٩م). فقد وصل الإخشيد إلى الإمارة في مصر والشام، والأهواء تلعب بالمنطقة من كلّ جهة. فالحركة القرمطية الإسماعيلية تتفشّى في بلاد الشام ولبنان والحمدانيون يعملون على تأسيس إمارة خاصة بهم في شمال سوريا، والدولة العباسيّة تحاول جاهدة استعادة البلاد. والقبائل العربية من بني كلاب تحاول إيجاد إمارة لها. في مثل هذا الجو ولدت الدولة الإخشيدية وعاشت وتمكّنت من القضاء على معظم أخصامها ما عدا العائلة الحمدانية التي اتّخذت من حلب مركزاً لها ابتداءً من سنة ٩٤٤م. وأصبحت المنطقة في تجاذب بين الإخشيديين والحمدانيين.

واتّخذ هذا التجاذب طابع العنف، لأن الإخشيديين كانوا سُنّة، بينما كان الحمدانيون شيعة.

وفي عام ٩٤٦م عندما توفي الإخشيد انتقل زمام الحكم إلى زنجي خصي كان في خدمته واسمه أبو المسك كافور. وقد استولى أولاً على الحكم باسم ولدي الإخشيد القاصرين، ولكنه تخلّص منهما وحكم البلاد باسمه. وقد خلّد المتنبي (٩١٥ ـ ٩٦٥) أشهر شاعر في ذلك العصر، اسم كافور مدحاً وهجاء، كما فعل بعدوّه سيف الدولة في حلب وقد بدأ المتنبي شعره في كافور بقصائد مدح آملاً منه بأن يحظى بجائزة أو عطف، ولكن سرعان ما انقلب مدحه إلى هجاء مرّ.

لقد كان الحكم الإخشيدي عبارة عن حكم شخصين هما: محمد بن طغج الملقب بالإخشيد، وكافور الأسود الذي حكم نحو ربع قرن. وفي أواخر عهد كافور (٩٦٧م) حصل حريق كنيسة القيامة في القدس بسبب الخلاف بين الوالي الإخشيدي محمد بن إسماعيل الصنهاجي وبطريرك مدينة القدس. وأدّى هذا الحادث إلى النزاع الدموي الخطير مع البيزنطيين.

وانتهى حكم الإخشيديين في مصر بوصول القوات الفاطمية من شمالي أفريقيا، وانتزاعها البلاد برمتها.

خلال هذه الفترة المضطربة كان الحكم في جبل لبنان وبيروت في أيدي التنوخيين وعليهم الأمير المنذر بن النعمان ويبدو من سكوت التاريخ أن المنطقة اللبنانية ظلت هادئة وبعيدة عن المشاكل المجاورة.

الحمدانيون

برز الحمدانيون في سياسة بلاد الشام في العهد الطولوني، ثم تمكّنوا من الاستيلاء على شمالي سوريا، وجعلوا حلب عاصمة لهم (٩٤٤م)، وبرز منهم سيف الدولة الذي جعل في إمارته الصغيرة قوة كبيرة حاولت التوسّع في وسط وجنوبي سوريا. ولكن هذه الإمارة لم تشمل جميع المناطق اللبنانية، بل اكتفت

بالمناطق الشمالية.

وكان الحمدانيون (٩٤٤ ـ ١٠٠٣م) من قبيلة عربية متشيعين فأسهموا في بث التشيع في الشمال، بينما كانت القرمطية الباطنية تنتشر في الجنوب. وبقيت منطقة بعلبك متأثرة بالسنّة ومرتبطة بالإخشيديين في دمشق.

وبما أن الدولة الحمدانية كانت على حدود الروم فإن الحمدانيين أخذوا على عهدتهم حماية الثغور ضدّ هجمات البيزنطيين. وأبرز ما تميّز به الحمدانيون، الغزوات المتواصلة ضد البيزنطيين الذين كانوا يتوسعون ببطء على حساب الضعف العباسي. وقيل إن سيف الدولة غزا البيزنطيين أربعين غزوة.

ولعل الغزوات الحمدانية، بالإضافة إلى حريق كنيسة القيامة وتدهور الخلافة العباسية وتفسّخ البلاد إلى إمارات وممالك منفصلة شكل السبب الأساسي لحدوث أمرين مهمين:

الأول احتلال الفاطميين لمصر وبلاد الشام.

والأمر الثاني هو محاولة البيزنطيين استعادة بلاد الشام والذي شكل مقدمة للحروب الصليبية ـ البيزنطية.

الفاطميون

كانت الدولة الفاطمية التي قامت في مصر (٩٠٩ ـ ١١٧١) أقوى دولة من تلك الدويلات التي نشأت لما دبَّ التفكّك في الدولة العباسية. ولا يجب أن نضع الدولة الفاطمية في عداد الدويلات المنشقّة عن الخلافة العباسية لأنها كانت في الواقع خلافة مستقلة تحدّت الخلافة في بغداد وكادت أن تقضي عليها. أما مؤسس هذه الدولة الفاطمية فهو عبد الله المنتسب إلى فاطمة. وقد أعلن نفسه المهدي المنتظر الذي تتطلّع الشيعة إلى ظهوره. ويظنّ أنه ولد في سَلَمية بالقرب من مدينة حمص ومنها سار إلى المغرب حيث أسّس عاصمة له في تونس دعاها المهديّة وأقام فيها من ٩٠٩ إلى ٩٣٤م. وفي عام ٩٧٣ نقل خليفته الثالث المعزّ (٩٥٢ ـ ٩٧٥)، عاصمة ملكه إلى مصر حيث كان قائده جوهر، وهو مولى مسيحي من

صقلية، قد أسّس عاصمة جديدة لا سيادة للفاطميّين عليها سمّاها القاهرة. وجوهر الصقلي هو الذي بنى جامع الأزهر، الذي يعد من أكبر المؤسسات الدينية المحافظة في العالم كله، وهو الذي وسّع ملك الفاطميين حتى بلغ سنة ٩٦٩ ميلادية الشاطىء اللبناني بكامله، وهو الذي طرد الإخشيديين من مصر وسورية حيث وجّه إلى بلاد الشام جيشاً بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي الذي أرسل لأمير التنوخيين المنذر بن النعمان «يدعوه إلى بيعة مولاه، فاستشار الأمير عشيرته، وأجابه جواباً لطيفاً ليرى ما يكون منه»[١]. واحتلّ الفاطميون دمشق بالقوة وعيّنوا ريّان الخادم حاكماً على طرابلس وابن الشيخ في صيدا وهو رئيس المغاربة، وظالم بن موهوب على بعلبك. أما الأمير منذر فقد قصد القائد الفاطمي إلى دمشق وبايعه عن الخليفة الفاطمي، فأقره القائد الفاطمي في حكم جبل لبنان.

ويبدو من سهولة الفتح الفاطمي للمناطق اللبنانية أن هذه المناطق كانت متأثرة بالدعوة الفاطمية قبل وصول الجيش الفاطمي[٢].

وفي خلافة العزيز (٩٧٥ ـ ٩٩٦) بلغت رقعة المملكة ذروتها في الاتساع. فقد كان الناس يعترفون بسيادة الفاطميين في المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر فالحجاز واليمن، وحتى الموصل في شمال العراق.

ولكن الفتح الفاطمي كان يقابله من جهة ثانية محاولة بيزنطية لاستعادة سورية، فمنذ أن فقد البيزنطيون سيطرتهم على الشاطىء الشرقي للبحر المتوسط لم ينقطعوا يوماً عن إسداء العون لكلّ حركة مناوئة للعرب تقوم في تلك المنطقة، ولم ينفكّوا يوماً عن التطلّع إلى استعادة ملكهم المفقود. ففي الإحدى والثلاثين سنة الأخيرة من سني القرن العاشر جرّدوا أربع حملات عسكرية يقودها الامبراطور بنفسه ضدّ سورية. وكانت أولى محاولاتهم العسكرية تلك التي قادها الامبراطور نقفور فوكاس سنة ٩٦٩م والتي أسفرت عن إخضاع إنطاكية وحلب وإعادتهما إلى الحكم البيزنطي. وقد وصف يحيى الأنطاكي حملة نقفور قائلاً: «كانت غزوات

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.
(٢) لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، علي مكّي.

نقفور قد أصبحت نزهة لجنوده، لأنه لم يكن يقف في وجههم أحد، فيتقدمون إلى حيث يشاؤون ويدمرون ما يشاؤون دون أن يلتقوا بمحارب مسلم واحد أو أي معارض كان».

وبينما كان الحمدانيون يعلنون الولاء المذهبي للفاطميين، كان الفاطميون يرسلون حملة إلى إنطاكية لاستعادتها من أيدي البيزنطيين، وإذا بالقرامطة المتحالفين مع العباسيين يشنّون هجوماً كبيراً على دمشق ويقتلون القائد الفاطمي جعفر بن فلاح، ويعيّنون القرمطي أحمد بن مستور متولياً على دمشق باسم رئيس القرامطة الحسن الأعصم. وحاول أحمد بن مستور القرمطي أن يستميل الأمير المنذر أمير جبل لبناني فرفض الأمير وبقي على ولائه للفاطميين.

ثمّ وجّه المعزّ لدين الله الخليفة الفاطمي قوة جديدة تمكّنت من استرداد دمشق من أيدي القرامطة، وأسهم حاكم بعلبك الفاطمي ظالم بن موهوب في السيطرة على دمشق كما أسهم حاكم طرابلس الفاطمي ريان الخادم في القضاء على التمرّد في دمشق وتهدئة الوضع فيها وأصبح حاكماً عليها.

ورأى العباسيون أن يستغلوا هذه الفرصة فوجهوا القائد التركي هفتكين إلى دمشق فانتزعها من الفاطميين سنة ٩٧٤ ثم حاول الاستيلاء على بعلبك، فكتب إلى الأمير تميم بن المنذر أمير التنوخيين «يطلب منه أن يوافيه بالرجال إلى بعلبك، وأن لا يقبل ابن موهوب إذا التجأ إليه فأجابه جواباً غير شافٍ، فوقع ذلك بقلبه، ثم قدم إلى بعلبك، فانهزم ابن موهوب واختبأ عند الأمير تميم. وكتب ابن موهوب إلى المعزّ يخبره فأمره بالإقامة في صيدا»(١).

ويبدو أن انتصار هفتكين التركي العباسي في دمشق والبقاع قد شجّعه على مطاردة الفاطميين في فلسطين، خاصة بعد أن وصلته أنباء موت المعزّ لدين الله الفاطمي، فاحتلّ هفتكين صيدا بعد قتال عنيف ضد المغاربة فيها وزعيمهم ابن الشيخ ومعه ظالم بن موهوب العقيلي. ويقول ابن الأثير في كتاب «الكامل»:

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.

«. . . فعمد هفتكين إلى صيدا فحصرها وبها ابن الشيخ، ومعه رؤوس المغاربة، ومعهم ظالم بن موهوب العقيلي، فقاتلهم وكانوا في كثرة فطمعوا فيه وخرجوا إليه، فاستبحرهم حتى أبعدوا، ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف».

ويذكر الشدياق في «أخبار الأعيان» أن الأمير تميم ساعد ابن الشيخ وظالم بن موهوب في معركة صيدا، ثم هُزم واختبأ في شقيف تيرون، وأن أحد الأمراء التنوخيين وهو الأمير درويش وقف إلى جانب هفتكين في هذه المعركة، ممّا جعل أمير الشام العباسي هفتكين يعزل الأمير تميماً عن إمارة الجبل ويعيّن خلفاً له هو الأمير دوريش ويمنحه لقب فخر الدولة.

وحاول الفاطميون مجدّداً، بعد وصول العزيز بالله الفاطمي إلى مركز الخلافة أن يستعيدوا لبنان وبلاد الشام، فوجّه العزيز قائده جوهر، فحاصر دمشق وانقسم التنوخيون اللبنانيون، إذ وقف قسم منهم وعلى رأسهم الأمير تميم مع القائد جوهر، بينما وقف الفريق الآخر بزعامة الأمير درويش إلى جانب هفتكين العباسي. وتخوّف هفتكين من ضراوة الهجوم الفاطمي فاستدعى زعيم القرامطة الحسن الأعصم، فهزم جوهر في دمشق وفي فلسطين وانسحب إلى مصر ومعه الأمير تميم وظالم وابن الشيخ.

ثم عاد العزيز في السنة التالية فوجّه جيشاً كبيراً تمكّن به من استعادة البلاد وهزيمة هفتكين وإبعاد القرامطة وإعادة الأمير تميمَ إلى إمارته التقليدية في بيروت والغرب.. واستقرّ الحكم في لبنان بأيدي الفاطميين.

حاول البيزنطيون السيطرة على بلاد الشام بكاملها، ولكن الحمدانيين في شمالي سورية رفضوا الدخول في طاعتهم بالرغم من وحدة المذهب الشيعي الذي يجمع الفريقين. واضطرّت الدولة الفاطمية إلى مهاجمة الحمدانيين، ولكن هؤلاء استنجدوا بالبيزنطيين، فكان التدخّل البيزنطي. فبعد حملة الامبراطور البيزنطي نقفور عام ٩٦٩م، والتي أسفرت عن احتلال انطاكية، توقفت حركة التوسع البيزنطي مع وفاة الامبراطور. إلا أن وصول الامبراطور جان زمسيس (٩٧٤ ـ ٩٧٦م) المعروف بابن الشمشقيق، أعاد حركة التوسّع البيزنطي إلى ذروتها، فقد قام

هذا الامبراطور سنة ٩٧٤ بهجوم واسع سيطر خلاله على شمالي سورية ووصل سنة ٩٧٥ إلى لبنان فاحتل الساحل بكامله ما عدا طرابلس كما احتلّ بعلبك وفرض الضريبة على دمشق. وقد وصف أحد المؤرخين البيزنطيين المعاصرين حملة يوحنا زمسيس على سورية ولبنان فقال: «كانت الشعوب في خوف عظيم من غضب زمسيس، وتوسيع امبراطورية الرومان، كانت أمامه الجماعات الإسلامية والأرمنية والفارسية، ومن كل الجهات كان يأتيه الخضوع وطلب الرحمة. وتُقدّم إليه الهدايا، فوصل إلى الرها والفرات وامتلأت الأرض بمعسكرات الرومان. وسوريا وفينيقيا إنْدَاستا تحت أقدام الخيول الرومانية. وانتصر يوحنا انتصاراً عظيماً».

كيف كان واقع الحال بالنسبة للخلفاء الفاطميين في بلاد الشام؟ لقد أمضى الخليفة الفاطمي العزيز بالله مدّة حكمه وهو يحاول جاهداً التخلص من الحمدانيين ومن بعض ولاته في بلاد الشام الذين كانوا يحاولون الانفصال والاستقلال بما لديهم. وقد تأثرت منطقة طرابلس بهذه الفوضى بسبب قربها من انطاكية، منطقة النفوذ البيزنطي، وقربها من منطقة حلب، منطقة النفوذ الحمداني. واتّخذ الفاطميون من طرابلس مركزاً رئيسياً لهم على الساحل اللبناني فتركّز فيها الأسطول الفاطمي كما أصبحت مركز التموين.

وتدفّقت هجرة كبيرة على المناطق الساحلية من لبنان من المغاربة ومنهم العائلة النكدية[1] وترافق الحكم الفاطمي وتدفّق المهاجرين مع دعوة دينية للأخذ بمذهب الفاطميين الشيعي. واعتمد العزيز بالله في نشر المذهب الشيعي الفاطمي على التساهل ومجالس الدرس المختلفة حتى أنه جعل بعض ولاته وحكامه من المسيحيين واليهود.

وقد أدى الاضطراب المتواصل في المنطقة إلى انقسام الإمارة التنوخية من حيث الولاء، فتحزّب بعض الأمراء للفاطميين، بينما تحزّب فريق آخر للحمدانيين. ولكن هذا التحزب لم يمنع أن تشمل الإمارة التنوخية الساحل اللبناني بكامله من

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.

طرابلس إلى صور[1].

وقد حاول العزيز بالله إنهاء الاضطراب في بلاد الشام وإبعاد البيزنطيين، فهيّأ جيشاً كبيراً، ولكن المرض داهمه في الفترة نفسها، أي في العام ٩٩١، فقام الامبراطور باسيل الثاني عام ٩٩٥م. بهجوم كبير على شمالي سورية واستلم الخلافة الحاكم بأمر الله.

وفي السنة الثانية من حكم الحاكم بأمر الله أعلن ملاّح من صور هو علاّقة استقلاله بالمدينة، وسكّ النقود باسمه وكتب عليها: «عزّ بعد فاقة الأمير علاّقة». وبلغته الأنباء عن تحرّك فاطمي فاتّصل بالبيزنطيين طالباً مساعدتهم فلبّوا الطلب وأرسلوا سفنهم لنجدة الأمير الذي تحدّى سلطة الجيش الفاطمي مدة من الزمن، فوجّهوا إلى مدينة صور جيشاً بقيادة أبي عبد الله الحسيني بن ناصر الدولة بن حمدان، ومعه أسطول فاطمي، فحاصر المدينة برّاً وبحراً واصطدم بالسفن البيزنطية فاضطر أهل صور إلى الاستسلام، فاحتل القائد الحمداني المدينة ونهبها وأخذ علاّقة أسيراً وأرسله إلى مصر حيث عُذِّب وسُلِخ جلده حياً، وقيل إن الفاطميين حشوا جلده قشاً وتبناً انتقاماً منه. وعيّن الفاطميون أبا عبد الله بن حمدان أميراً على صور. وفي العام ١٠١٥ أقطع الحاكم بأمر الله مدينة بيروت وصيدا أحد عمّاله لقاء ضريبة يدفعها العامل للحاكم قدرها ٣٠٠ ألف دينار.

وتابعت قوات الحاكم بأمر الله زحفها شمالاً حتى وصلت إلى مشارف أنطاكية. ويبدو أن محاولة الحاكم استعادة هذه المدينة من البيزنطيين جعلت هؤلاء يعودون إلى غزو البلاد، فشنّ الامبراطور باسيل الثاني حملته الثانية سنة ٩٩٩م، بعد حملته الأولى ضد طرابلس والتي باءت بالفشل، ولكن حملته الثانية نجحت واجتاح معظم المناطق الشمالية من سورية ووصل إلى طرابلس. وأثمر هذا الهجوم عن توقيع اتفاقية بين البيزنطيين والفاطميين لمدة عشر سنوات. وقبل أن تنتهي مدة الاتفاقية أمر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة وبعض الكنائس الأخرى، وفرض

(١) أخبار الأعيان في جبل لبنان، طنوس الشدياق.

على المسيحيين قيوداً شديدة سنة (١٠٠٩م) شكّلت في ما بعد أحد الأسباب التي أدّت إلى نشوب الحروب الصليبية كما ذكرنا.

ورافق هذا التشدد من قبل الحاكم بأمر الله ضدّ المسيحيّين الدعوة إلى المذهب المعروف بالتوحيد، أو مذهب الدروز، ليكون خلاصة المذاهب والأديان. وقد ساعده على ذلك خضوع البلاد الشامية بكاملها للحاكم، بما في ذلك مملكة حلب التي انتهى حكم الحمدانيين فيها سنة ٤٠٤ هـ وقد وجد هذا المذهب الأرض الخصبة له في الجنوب الشرقي من لبنان (وادي التيم) كما انتشر في مناطق مختلفة من بلاد الشام.

ولعلّ قيام الدولة المرداسيّة (١٠٢٣ ـ ١٠٧٩م) كان أحد أسباب إقفال الدعوة الدرزية. فقد استولى بنو مرداس على حلب وأقاموا فيها دولة تنازع الفاطميين. واستلم بلاد الشام الأمير ناصر الدولة الحسن بن حمدان جاعلاً هدفه محاربة المرداسيين. ثم استولى على صور ابن أبي عقيل واستقلّ بها. ثم استغل الفوضى القاضي ابن عمّار فاستلم طرابلس واستقلّ بها. وحاول الفاطميون أن يستعيدوا مكانتهم في بلاد الشام بدون طائل. بينما كان التدخل البيزنطي يزداد في منطقة أنطاكية واللاذقية. وأصبحت صور كما أصبحت طرابلس مستقلتين وتعترفان فقط بالولاء الفاطمي نظراً لتشيّعهما، حتى كان الفتح السلجوقي التركي.

السلاجقة

لمّا اضطرب حبل الأمن في البلاد السورية واندلعت الثورات أرسل العباسيون نفراً من السلاجقة، وهم أتراك اتّخذهم العباسيون حرساً خاصاً في بغداد، وعهدوا إليهم باستئصال أسباب الثورات، فبدأ السلاجقة يعملون باسم العباسيين، ثم استهواهم حبّ السلطة فانتهوا إلى العمل باسم أنفسهم واستقلّوا بالحكم عن بغداد. ساعدهم في ذلك ضعف الدولة الفاطمية والتي كانت تغذيها موجات من الانحلال والفوضى مما جعلها غير قادرة على حكم بلاد الشام.

وابتداءً من أواسط القرن الحادي عشر الميلادي أصبح العالم الإسلامي

الشرقي منقسماً إلى قسمين: قسم يسيطر عليه الشيعة بزعامة الفاطميين، وقسم تركي يسيطر عليه الأتراك السلاجقة الذين كانوا متعصبين لمذهب السنّة. وهكذا أصبح لبنان يتأرجح بين تجاذب الدولتين الفاطمية والسلجوقية، ممّا أدّى إلى قيام إمارات محلّية وطنية في طرابلس وفي صور وفي حلب وفي دمشق، وأبرزها إمارة بني عمار في طرابلس.

إمارة بني عمّار في طرابلس

يقول المقريزي: «إن مؤسس هذه الإمارة هو القاضي الأجلّ أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن محمد بن عمار بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن إدريس بن أبي يوسف الطائي». ويرى أكثرية المؤرخين أن استقلال القاضي ابن عمار بطرابلس كان العام ٤٦٢ هجرية بدليل تدخله بين أمير الجيوش الفاطمية بدر الجمالي والأمير محمود بن مرداس أمير حلب سنة ٤٥٩ هجرية وإصلاحه الحال بينهما، ممّا يدلّ على أنه كان ما يزال قاضياً وليس مستقلاً بالمدينة. وقد حكم بعد استقلاله بسنتين ثم توفي سنة ٤٦٤هـ. ويعود الفضل إلى هذا القاضي بإنشاء المكتبة الشهيرة في طرابلس التي كانت تضمّ أكثر من مئتي ألف مجلّد في مختلف العلوم والآداب.

واستلم الإمارة بعد القاضي المذكور ابن أخيه جلال الملك أبو الحسن علي الذي حكم حوالي ٢٨ عاماً.

ويعود الفضل الكبير في الحفاظ على استقلال طرابلس وتوسيع إمارتها إلى القاضي جلال الملك، كما يعود إليه الفضل كذلك في وضع سياسة مرنة تجاه الفاطميين وتجاه السلاجقة الأتراك، فهو لم يقطع علاقته بالخليفة الفاطمي بسبب تشيّعه وتشيّع أكثرية السكان في إمارته، وفي الوقت نفسه وقف بتصرف السلاجقة كصديق وحليف، وبذلك حافظ على إمارته. لكن صهره الأمير حصن الدولة معلى بن حيدرة حاول الاستقلال بدمشق فهاجمه الفاطميون فهرب ملتجئاً إلى طرابلس، ولكن جلال الملك سلّمه للفاطميين في القاهرة فأعدم هناك. وعندما جاء السلاجقة إلى بلاد الشام بقوّاتهم الضخمة هاجموا إمارة طرابلس وانتزعوا من بني عمار حصن عرقة الشهير وضربوا الحصار على طرابلس، ولكن جلال الملك راسل

أمراء السلاجقة ودفع مبلغ ٣٠ ألف دينار وأبرز بالحيلة، مناشير من السلطان السلجوقي تنص على إبقاء طرابلس في حكم بني عمّار، فنجحت حيلته ونجا من السلاجقة[١].

إمارة بني عقيل في صور

أسّس هذه الإمارة القاضي عين الدولة بن أبي عقيل سنة ٤٦٢ هجرية، أي في السنة نفسها التي استقلّت فيها طرابلس مع بني عمّار. ولكن الفاطميين أرسلوا قائد الجيوش بدر الجمالي لاستردادها نظراً إلى أهميتها، ولأنها تشكل المرفأ الرئيسي لمنطقة دمشق. وحاصر الفاطميون صور إلا أن ابن أبي عقيل أسرع يستنجد بالأتراك في دمشق، وعليهم الأمير قرلو، فأرسل إليه أحد عشر ألفاً من الجنود فحاصروا مدينة صيدا التي كانت لا تزال تابعة للفاطميين، فاضطرّ بدر الجمالي إلى فكّ الحصار عن صور. فعاد الأتراك عن صيدا، ثم عاد القائد المصري «فشدّ الحصار بحراً وبرّاً على صور لمدّة سنة وضيّق على أهلها حتى أكلوا الخبز كلّ رطل بنصف دينار ولم يبلغ غرضه فرحل عنها»[٢].

وقد مكّن هذا الثبات لابن أبي عقيل في صور من أن يثبّت دعائم إمارته له ولعائلته من بعده. ولكنه بالرغم من استقلاله فإنه لم يقف موقف العداء من الفاطميين، ودليل ذلك أن أمير دمشق المعلى بن حيدرة هرب من دمشق ومنها إلى بانياس ثم وصل إلى صور ملتجئاً فمنعه بن أبي عقيل من البقاء في صور، فاضطر للذهاب إلى طرابلس وانتهى الأمر به في القاهرة حيث قتل.

وزادت صور مكانة بعدما أصبحت دمشق والمناطق البقاعية بأيدي السلاجقة، فأصبح بإمكانها أن تستفيد من عداوة الفريقين لبعضهما البعض.

ولكن أولاد ابن أبي عقيل خرجوا عن سياسة التوازن، ودخلوا في تبعيّة السلاجقة في دمشق الذين كان على رأسهم تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان شقيق

(١) الكامل، ابن الأثير.
(٢) الكامل، ابن الأثير.

ملكشاه. لذلك عمد المصريون الفاطميون مجدداً إلى محاصرة المدينة سنة ٤٨١ هجرية وتمكنوا من انتزاعها من حكم أولاد ابن عقيل، وعينوا عليها حاكماً جديداً فاطمياً لقبه منير الدولة الجيوشي. واحتلّوا كذلك صيدا وجبيل. ولكن الحاكم الجديد حاول بعد ذلك بأربع سنوات أن ينفصل عن الفاطميين ويعود إلى حظيرة السلاجقة، فثار أهالي صور وأعلنوا تمسّكهم بتشيّعهم، وأدّى ذلك إلى تدخّل الجيش الفاطمي المصري واحتلال صور، وفرض غرامة كبيرة على البلد بقيمة ستين ألف دينار. أما والي المدينة وأعوانه فقد سيقوا إلى مصر وقتلوا جميعاً هناك[١]. ثم عيّن المصريون والياً جديداً على صور اسمه كثيلة، وما إن استقرّ له الأمر حتى أعلن عصيانه واستقلّ بالمدينة عن الفاطميين سنة ٤٩٠ هجرية. فأرسل الخليفة الفاطمي المستعلى ابن المستنصر جيشاً إلى صور، فحاصر المدينة وضيّق على جميع من فيها، ثم افتتحها بالسيف، وقتل فيها خلق كثير ونهبت وأسر الوالي ونقل إلى مصر حيث قتل.

وبقيت صور بعد فشل ثوراتها المتكرّرة بأيدي الفاطميين حتى وصول الصليبين.

أما البقاع فتأخّر سقوطه بيد السلاجقة حتى سنة ٤٧٦ هجرية عندما سلّم ابن صقيل حاكم بعلبك الفاطمي المدينة لتاج الدولة تتش. وقد أرسل تاج الدولة إلى الأمراء التنوخيين في الغرب كتاباً باسم أميرهم شجاع الدولة أبي الغارات يدعوهم بموجبه إلى الطاعة والاعتراف بتبعيّتهم للسلاجقة والطلب منهم حفظ البلاد من غارات الفرنجة والجبليين.

وهكذا أصبح لبنان موزعاً بين حكومات محلية وسيطرة سلجوقية، وبدا أن النفوذ الفاطمي قد انتهى من البلاد، لكن الفاطميين لم يستسلموا للأمر الواقع، فقد كانت فلسطين ما تزال في أيديهم، ولذلك أرسل الفاطميون جيشاً كبيراً جهّزه بدر الجمالي الأرمني الجيوشي فاحتلّ صور وصيدا وعكا واندفع إلى البقاع وحاصر

---

(١) الكامل، ابن الأثير.

بعلبك فسلّمها إليه واليها ابن ملاعب وأعلن الولاء للفاطميين. ثم حاول الفاطميون القضاء على إمارة بني عمّار فلم يتمكنوا، كما أنهم هاجموا دمشق مراراً إلا أنها بقيت تحت سيطرة السلاجقة. ثم عاد تاج الدولة تتش فهاجم بعلبك واستردّها من يد ابن ملاعب الموالي للفاطميين.

واستمرّت سيطرة الفاطميين في جنوب لبنان، وسيطرة السلاجقة في البقاع، وسيطرة التنوخيين في بيروت والجبل، وسيطرة بني عمار في طرابلس والشمال وسيطرة مقدّمي الموارنة في جبال الشمال حتى مجيء الصليبيين سنة ١٠٩٨ ميلادية.

الفصل الرابع

الأوضاع المذهبية في لبنان

إن الأوضاع المذهبية في لبنان لها أهميتها الخاصة نظراً لأن تاريخ لبنان قام على مجموعة من الطوائف لجأت إليه، وتآلفت فيه، وحرصت على وحدته، بغضّ النظر عما يتنازعها من فوارق ويميّزها من تعدّد اجتماعي وحضاري. وإذا نظرنا إلى الحكم الإسلامي بوجه عام، رأيناه يناقض الواقع اللبناني الناشىء عن طبيعة لبنان وموقعه الجغرافي. وقد كتب المفكر اللبناني ميشال شيحا في مؤلفه باللغة الفرنسية: «لبنان في شخصيّته وحضوره» يقول: «إن الإسلام السياسي متأتٍ عن الإسلام الديني، فالخليفة ليس بأمير السوريين أو العرب أو المصريين أو الأندلسيين، بل هو أمير المؤمنين». أي أنه في الوقت نفسه، إمام المسلمين، يتمتع بالسلطتين الدينية والدنيوية على ما هو معروف في النظم الإسلامية. وهذا المفهوم الذي يسلط الدين على الحكم السياسي، اصطدم بالصخرة اللبنانية الراسخة على التعددية والحرية والاستقلال.

والفتح الإسلامي في لبنان لم يستهدف الهدي الديني، فإن صالحاً بن علي، بعد الثورات التي قامت في وجهه، لم يأمر المغلوبين بأن يسلموا، وإنما أبقى كلاً منهم على مذهبه[١]. ولا شك في أن ذيوع مذهب الإمام الأوزاعي المتسامح في بلادنا، كان له أجمل الأثر في تدنّي التعصّب والاضطهاد الطائفي. ونورد هنا قولاً لابن جبير الذي زار لبنان في القرن الثاني عشر (نحو ١١٨٤م) إذ يصف لبنان هذا البلد الذي أعجبه بطبيعته الغنية وتقشف أبنائه فيقول: «. . . وجبل لبنان المذكور هو حدّ بين بلاد المسلمين والإفرنج، لأن وراءه أنطاكية واللاذقية وسواهم من بلادهم».

وهكذا فإن لبنان ظل في معظم أرجائه مقيماً على مسيحيّته، محتفظاً بحريته الدينيّة والمدنيّة. وكان أكثر من لم تمل بهم الدعوة أو الرغبة إلى تغيير ديني وشاؤوا البقاء على مسيحيّتهم في تلك الأقطار يقصدون لبنان[٢].

(١) لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، علي مكّي.
(٢) تاريخ لبنان الحضاري، يوسف السودا.

الموارنة أجداد الكنيسة اللبنانية

لمحة تاريخية عن الكنيسة

قبل الغوص في تفاصيل التاريخ الماروني لا بد من لمحة تاريخية سريعة عن الكنيسة المسيحية عموماً منذ نشأتها.

ففي غضون القرن الرابع للميلاد اتخذت الامبراطورية الرومانية لنفسها عاصمة جديدة في القسطنطينية، المسماة سابقاً بيزنطيا، ثم نبذت الوثنية واعتنقت المسيحية فأصبح الأباطرةِ الرومان حماة الدين المسيحي.

وكان للكنيسة المسيحية في الأساس أربعة مراكز بطريركية أنشأها الرسل وهي: رومية (روما)، الاسكندرية، أنطاكية، والقدس. أضيف إليها عام ٣٨١م بطريركية القسطنطينية. كان ذلك في عهد الامبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول المعروف بالكبير. وما إن توفي هذا الامبراطور عام ٣٩٥م حتى انقسمت الامبراطورية الرومانية بين ولاية هونوريوس وأركاديوس، فتبوأ الأول عرش الامبراطورية في روما وتبوأ الثاني عرش القسطنطينية. وعام ٤٧٦م. سقطت روما في أيدي الغوط وانتهت الامبراطورية في الغرب فاجتاحت قبائل الفرنك مقاطعة غاليا (فرنسا اليوم) وفرق أخرى من الغوط مقاطعة إيبريا (اسبانيا والبرتغال اليوم) وقبائل الفندال مقاطعة أفريقيا، واستمرّت الدولة الرومانية في القسطنطينية حيث تبوأ العرش عام ٢٣٧ الامبراطور يوستنيانوس الأوّل فجدَّ في إرجاع الامبراطورية إلى سابق مجدها، وتمكّن مع السنين من استعادة جميع المقاطعات التي كانت لروما في الجزء الغربي من حوض البحر الأبيض المتوسط ما عدا غاليا. وهكذا اجتمعت المراكز البطريركيّة الخمسة تحت حكم يوستنيانوس كما كانت في أيام ثيودوسيوس الكبير، فتعزز شأن المسيحية برعايته وبدت الامبراطورية الرومانية كأنها تشمل العالم

المسيحي بأسره.

غير أن إنجازات يوستنيانوس لم يكتب لها الدوام، فما إن توفي عام ٥٦٥ حتى عادت الأوضاع في الدولة الرومانية إلى التدهور. فاجتاحت إيطاليا القبائل اللومباردية، وسقطت إيبريا من جديد في أيدي الغوط. وفي الشرق تجدّدت الحرب بين الدولة الرومانية والدولة الساسانية في بلاد فارس، فانهارت قوى الرومان أمام الفرس. وما حلّ القرن السابع حتى اجتاح هؤلاء سورية ومصر وأخذوا الصليب المقدس من القدس ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن على نهر دجلة. وعام ٦١٠ وصلت جيوشهم إلى أقصى غرب الأناضول مهدّدة القسطنطينية. وفي العام نفسه دعي القائد الكبير هرقل من أفريقيا إلى القسطنطينية ليبتوأ العرش، فسارع إلى اتخاذ التدابير اللازمة لردّ الفرس عن القسطنطينية. وعمد هرقل بعد ذلك إلى استرجاع بلاد الأناضول وسورية منهم، فاستمرّت الحروب بينهم حتى عام ٦٢٨.

وكان من أهم الأسباب التي أدت إلى انهيار سورية ومصر أمام الفرس، بعد وفاة الامبراطور يوستنيانوس، ذلك الانقسام الذي طرأ في عهده على الكنيسة المسيحية في هذين القطرين.

ففي العام ٥٣٧م انقسمت كنيسة الاسكندرية بين القائلين بالطبيعة الواحدة في المسيح (أي أن المسيح هو الله بشكل إنسان وفيه طبيعة إلهية فقط) والقائلين بالطبيعتين (أي أن المسيح هو إله وإنسان في آن واحد) فانتخبت كل فئة بطريركاً خاصاً بها. وعام ٥٥٧ حصل انقسام مماثل في كنيسة أنطاكية. وكانت الدولة الرومانية قد اعتنقت مذهب الطبيعتين بعدما أُقرّ هذا المبدأ في المجمع الرابع الخلقدوني وهو المجمع ذاته الذي حرَّم مذهب الطبيعة الواحدة عام ٤٥١. فدعي القائلون بالطبيعتين في سورية ومصر «بالملكيين» من كلمة «ملكا» في السريانية بمعنى ملك نسبة إلى امبراطور القسطنطينية حامي المذهب الخلقدوني. أما القائلون بالطبيعة الواحدة والمصريون منهم درجت تسميتهم بالأقباط، من الكلمة اليونانية «Egyptos» والسوريون أطلق عليهم اسم السريان من سورية أو اليعاقبة نسبة إلى

يعقوب البرادعي أحد كبار دعاة مذهب الطبيعة الواحدة ومنظّم الكنيسة الفاعلة لهذا المذهب.

يذكر أن هذا الانقسام في كنيستي الاسكندرية وأنطاكية عكس في وقته نقمة شعبية واسعة النطاق، في مصر وسوريّة ضدّ الحكم الروماني. لذلك أطلق اليعاقبة والأقباط على مواطنيهم الذين بقوا على المذهب الخلقدوني اسم «الملكية»، إشارة إلى تبعيّتهم للدولة الرومانية وخضوعهم لها.

وكان من مظاهر حقد الأقباط واليعاقبة على الدولة الرومانية أن الفريقين امتنعا عن الدفاع عن سورية ومصر عندما اجتاحهما الفرس.

وتنبّه الامبراطور هرقل، خلال حروبه مع الفرس، إلى خطورة الانقسام الكنسي في سورية ومصر وما نجم عن هذا الانقسام من إحراج للدولة الرومانية وللقضية المسيحية الكبرى، فسعى إلى استمالة اليعاقبة والأقباط والحدّ من نقمتهم بالتنازل بعض الشيء عن الموقف الخلقدوني بشأن الطبيعتين في المسيح. وبناء على اقتراح بطريرك القسطنطينية سركيس الأول وبموافقة هونوريوس الأول، بابا روما، دعا الامبراطور هرقل إلى تفسير جديد للمبدأ الخلقدوني يجعل المسيح ذا طبيعتين يصدر عنهما فعل واحد. وحضّ الامبراطور هرقل جميع المسيحيين على القبول بهذا التفسير والكفّ عن الجدل حول الطبيعة والطبيعتين، وأصدر عام ٦٣٨م مرسوماً يُجبر المؤمنين على القبول بالتفسير الجديد ويوضح أن الفعل الواحد في المسيح إنما يصدر عن مشيئة واحدة. غير أن مرسوم هرقل لم يحلّ المشكلة بل زادها تعقيداً. ذلك أن القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين رفضوا الحلّ الوسط. أما الذين قبلوا به، فأصبحوا فئة ثالثة في الكنيسة ما لبث أن دخلت طرفاً ثالثاً في الجدل.

لقد كان القصد من المجيء بفكرة «المشيئة الواحدة» إعادة الوحدة إلى الكنيسة المسيحية في وجه الخطر الفارسي. لذلك لا يجوز تسمية هذه الفكرة بالبدعة، لأن البدعة تقصد الفتنة والفتنة تؤدي إلى الانقسام. أما فكرة «المشيئة

الواحدة» فكان القصد منها إخماد الفتنة والرجوع عن الانقسام. لذلك لقيت الفكرة التي جاء بها بطريرك القسطنطينية سركيس الأول قبولاً عند بابا روما وغيره من الأحبار. ولذلك أيضاً تجاوبت مع الفكرة فئات شعبية من مختلف أنحاء الامبراطورية وتحمست لمساندة هرقل في كفاحه البطولي ضد الفرس المجوس باسم المسيحية. غير أن بعض الأحبار المتحمّسين للمذهب الخلقدوني شاؤوا أن يرفضوا الفكرة الجديدة» رفضاً باتاً وأن يقاوموها بضراوة، ولو سبَّب ذلك إحراجاً شديداً للامبراطور هرقل. وكان من جملة الذين آثروا التمسّك بالدقة اللاهوتية في أحرج الأوقات، ولم يراعوا للضرورة أحكاماً، الراهب صفرونيوس الذي نُصّب عام ٦٣٣ بطريركاً على القدس. وفيما استمرّ صفرونيوس يعاند هرقل، تغلّب العرب على عسكر الامبراطورية في «معركة اليرموك»، وقام صفرونيوس بنفسه بتسليم مدينة القدس إلى الفاتحين عقب هذه المعركة.

أما أجداد الموارنة، فكانوا من أنصار هرقل الذين اعترفوا بأحكام الضرورة، فآثروا الدفاع عن كيان المسيحية والسعي لإعادة وحدة الكنيسة على مراعاة الدقة اللاهوتية.

من هم الموارنة الأوائل؟

شكّل وادي العاصي مهد المارونية التي انتسبت في تسميتها إلى القدّيس مارون الذي عاش في أواخر القرن الرابع والذي «غرس حديقة النسك في المنطقة» على حد قول أسقف قورش تيودورس. وتمكّن القديس مارون من نشر الإيمان المسيحي في صفوف أهالي المنطقة وكانت له شهرة عظيمة وتلاميذ وأتباع أنشأوا باسمه ديراً قرب حماه «ذا بنيان عظيم حوله أكثر من ثلاثمئة صومعة فيها رهبان وفيه من آلات الذهب والفضة والجوهر شيء عظيم»، حسب ما جاء في كتاب المسعودي «التنبيه والإشراف».

وأصبح لهذا الدير زعامة روحية على أهل القرى المجاورة فانتسبوا مع الزمن إليه وتسمّوا بالموارنة. وتحزّب لهذا الدين مع الزمن «بتواتر الفتن من الأعراب

وحيف السلطان»[١].

ففي غضون القرن السابع ظهر الإسلام وكانت موجات الفتح الإسلامي في الشرق وفي بلاد الشام حيث أنزل العرب بالحكم الروماني ـ المسيحي في سورية ومصر ضربة قاضية فتضعضعت أحوال المسيحية في هذين القطرين، وانقطعت الصلات المنتظمة بين بطاركة القسطنطينية وبطاركة أنطاكية والقدس والاسكندرية، كما انقطعت هذه الكنائس الثلاث عن كنيسة روما التي كانت منشغلة في ذلك الوقت بأمور الكنيسة في الغرب، وضعفت علاقتها بالكنائس الشرقية بعد انهيار حكم الأباطرة في إيطاليا. وهذه الفترة التي تلت الفتح العربي لسورية ومصر جعلت أبناء قرى وادي العاصي يلتفّون حول رهبان دير مار مارون فتكوّنت بذلك نواة الكنيسة المارونية.

وعندما جاء الفتح العربي وانسلخت سورية ومصر عن جسم الامبراطورية الرومانية ـ المسيحية، تجمدت الأوضاع الكنسية تحت حكم الخلفاء في كل من القطرين، واستمرت كل فئة مسيحية هناك تقول القول الذي كانت تقول به قبل الفتح العربي. وهكذا بقي رهبان دير مار مارون متمسكين بمذهب المشيئة الواحدة، على الأقل في شكله البدائي المُشدّد على الفعل الواحد من دون تحديد للمشيئة، ظناً منهم أنه المذهب الصحيح المقبول به من القسطنطينية وروما.

أما في القسطنطينية وروما فاتّضح مع الزمن أن مذهب المشيئة الواحدة الذي جيء به أصلاً كحلّ وسط لإعادة وحدة الكنيسة في سورية ومصر لم يعد نافعاً لهذه الغاية بعد خروج كلا القطرين، بسبب الفتح العربي، عن سلطة القسطنطينية. إضافة إلى ذلك فإن الاستمرار في الإصرار على فرض هذا المذهب على كنيسة القسطنطينية بعد وفاة هرقل عام ٦٤١م كاد أن يخلق انقساماً جديداً هناك. ولذا تقرر أخيراً العدول نهائياً عن هذا المذهب. وانعقد المجمع السادس في القسطنطينية عام ٦٨٠ فحرَّم القول بالمشيئة الواحدة وأقرَّ القول بالمشيئتين.

---

(١) التنبيه والإشراف. المسعودي.

القدّيس مارون: اسمه وسيرته

إن اسم مارون ليس اسماً سريانياً بل هو أموري فينيقي، ويبرّر هذا القول الأب بطرس ضو فيقول: إن لفظة «مارون» أو «مرون» شاعت قبل انتشار اللغة السريانية فهي من أصل فينيقي كنعاني. وقد وردت هذه اللفظة في العهد القديم اسماً لمدينة فينيقية كما جاء في سفر يشوع: «وهذا من ضربه يشوع وبنو إسرائيل من ملوك الأرض في عبر الأردن غرباً من رجل جاء في بقعة لبنان إلى الجبل الأملس الممتد إلى سعير.. في الجبل والسهل والغور والسفوح والبرية والجنوب أراضي الحثيين والأموريين والكنعانيين والفرزيين والحُويين واليبوسيين. ملك أريحا واحد... ملك أورشليم واحد.. ملك شمرون مَرَاؤون واحد.. جميع الملوك واحد وثلاثون».

ومدينة شمرون مَرَاؤون الوارد ذكرها هنا هي من جملة المدن التي استولى عليها العبرانيون في زمن يشوع أي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، هذه المدينة اسمها اليوم مارون وتقع بجوار صفد في فلسطين(١).

أما معنى لفظة مارون فهي أمورية الأصل ككل الألفاظ الفينيقية المنتهية بـ«ون» كاسم البترون، القلمون، صيدون، حرمون وغيرها من الأسماء. فالمقطع «ون» الذي تنتهي به الأسماء التي ذكرناها وأمثالها يعني التفخيم والتعظيم في اللغة الأمورية الفينيقية فلفظة البترون تعني مثلاً: الصخرة الكبيرة نظراً لرأس الشقعة الذي هو صخرة كبيرة ممتدة في البحر. وهكذا فلفظة مارون هي تفخيم للفظة «مَرء» أي الرجل وتعني الرجل الكبير. في حين أن لفظة «ون» في اللغة السريانية تعني التصغير بعكس اللغة الأمورية الفينيقية، فيصبح معنى كلمة مارون في اللغة السريانية الرجل الصغير بعكس اللغة الأمورية الفينيقية، أي الرجل الكبير.

واتّخذ اسم مارون منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد صيغاً متنوعة حسب اللهجات المحلية، فهو في العربية والسريانية «مروان ومارون وماران وموران ومُرَّان

---

(١) R. Young, Analytical concordance of the Bible.

وميرون»، وفي اليونانية «مارونيوس» و«مارونوس». وقد جاء بصيغة مارون في «تاريخ أصفياء الله» لتيودوريوس أسقف قورش، وبصيغة «مارونيوس» في النصوص البيزنطية، وبصيغة «ماران» في «المقالات العشر» لتوما الكفرطابي، وبصيغة موران عند الموارنة أحياناً، كما في اسم «دير ريش مروان» أي «دير رأس مارون» في كفرحي البترون. وفي العربية اتخذ صيغة «مروان». كما ورد اسم مارون في كتاب وضعه بالسريانية في القرن العاشر مؤرخ سرياني مجهول الاسم ونشره البطريرك رحماني. وهكذا فإن مروان ومارون صيغتان لاسم واحد، مروان بالصيغة العربيّة ومارون بالسريانيّة، فالمؤلّفون السريان عندما يتكلمون عن خلفاء بني مروان يقولون بالسريانية مارون بدلاً من مروان ممّا يدل على أن مارون ومروان صيغتان لاسم واحد. وهناك العديد من الخلفاء اشتهروا باسم مروان مثل عبد الملك بن مروان، مروان بن الحكم مروان بن أبي حفصة وغيرهم.

أما ميلاد القديس مارون فكان في زبد من عائلة مسيحية، انقطع إلى الزهد في مكان غير بعيد عن مسقط رأسه، حيث انشأ رهبانيّته ودير مار مارون بجوار معرّة النعمان من إقليم أناميا في ما كان يسميه العرب «أرض المراء» أي الأرض الطيبة. و«المراء» على حد قول الأب بطرس ضو دعي في اليونانية واللاتينية «Maronia». من هنا قول بعض المؤرخين أن دير ما مارون يقع في مارونيا. والقول إن القديس مارون من زبد يتوافق مع قول بعض المؤرخين ومنهم بايوس وبارونيوس: إن القديس مارون أقام في بلدة مارونيا التي تقع في ناحية قنسرين بجوار زبد. ومن الكراسي الأسقفية المارونية القديمة قنسرين وجبوله القريبة من زبد.

أين عاش القديس مارون؟

هناك ثلاثة آراء بهذا الخصوص، فأصحاب الرأي الأول يقولون إن القديس مارون أبا الطائفة المارونية، عاش في دير مارون بجوار أناميا التي تقع بجوار نهر العاصي على بعد خمسة وأربعين كيلومتراً إلى الشمال الغربي من حماه.

أما أصحاب الرأي الثاني فيقولون بأن القديس مارون عاش عند نبع العاصي



القديس مارون

بالقرب من الهرمل في لبنان، في الدير المحفور بالصخر والمعروف إلى اليوم بمغارة الراهب ومغارة مار مارون.

أما أصحاب الرأي الثالث فيقولون بأن القديس مارون عاش في بلاد قورش، التي لا تزال خرائبها إلى اليوم في المحلة المسماة «نبي هوري» البعيدة نحو سبعين كيلومتراً عن حلب لجهة الشمال الغربي وهي تدعى باللغة الفرنسية «Cyr» سير.

في حين أن أصحاب الرأي الثالث يقولون بأن مار مارون عاش في القورشية أو بلاد قورش.

ويعتبر الكتاب الشهير «التاريخ الرهباني» الذي ألفه تودوروس حوالي سنة ٤٤٠ المصدر الرئيسي الوحيد للمعلومات عن حياة القديس مارون حيث سرد المؤرخ في كتابه سيرة نحو ثلاثين راهباً بمن فيهم القديس مارون.

دير مار مارون

إن دير مار مارون الأصلي الكبير يقع في المحلّة المعروفة بحير الشيخ في بلدة الدير الشرقي في جوار معرّة النعمان، وقد أنشأه القديس مارون وعاش فيه قبل أن ينتقل إلى كفرنابو. وقد أكمل بناء هذا الدير الملك مرقيانوس سنة ٤٥١م، وبنى



دير مار مارون، أحد ملاجىء الموارنة في شمال لبنان زمن الاضطهاد

أسواره الملك يوستنيانوس في القرن السادس، ثم وسَّعه الملك هرقل في أوائل القرن السابع. وزاد الدير اتساعاً وامتداداً حتى بلغ مجموع صوامعه ثلاثمئة صومعة في القرنين الثامن والتاسع.

وبالاستناد إلى عدد من المؤرخين فإن القديس مارون ولد في زبد وانقطع للنسك والعبادة في برية قنسرين بجوار معرة النعمان حيث أنشأ رهبانية ومدرسة روحية وأقام ديراً جمع فيه رهبانه وتلاميذه وعاش معهم.

ويقول المسعودي واصفاً الدير: «... ولمارون دير عظيم يحمل اسمه، جنوبي شيرز، وهو قلعة ضخمة جداً محاطة بثلاثمئة صومعة يسكنها الرهبان. وكان يحتوي عدداً كبيراً من الأواني الذهبية والفضية، ومن الأحجار الكريمة. وقد خَرِبَ هذا الدير وما حوله بجور السلطان، وتواتر الفتن من الأغراب» وكان في الدير ثمانمئة راهب حسب توما الكفرطابي.

ولمارون ٧٦ كنيسة وديراً في لبنان والعالم وهي منتشرة في لبنان وبلدان الشرق وصولاً إلى الأميركيتين وأوستراليا مروراً بأوروبا وأفريقيا.

وعن دور القديس مارون في الكنيسة يقول الأب بطرسٍ ضو: لقد كان لمدرسة القديس مارون وأتباعها الدور الأكبر في تصفية الوثنية في سوريا وتأسيس المجتمع المسيحي الجديد وقلب ميزان القوى في الكنيسة الأنطاكية لصالح الأكثرية الساحقة من الشعب السرياني الآرامي... وإذا نظرنا إلى مار مارون وطريقته وتلاميذه وأديارهم ومناسكهم ونفوذهم بهذا الشمول والعمق، جاز لنا أن نعتبر أن مار مارون أحدث ثورة، وكان له فضل كبير ودور تأسيسيّ في الحضارة المسيحية السورية اللبنانية من الناحية الدينية والرهبانية والفنية والوطنية والحضارية. ومار مارون هو من أعاظم الرجال المجدّدين الفاتحين في تاريخ الكنيسة، إمتد شعاعه الشخصي من كفرنابو إلى قورش شمالاً وسوريا ولبنان جنوباً واللكام غرباً، وبواسطة أبنائه الموارنة إلى كل بلدان الشرق وأوروبا وأميركا وغيرها من بلدان العالم.

رقعة الانتشار الماروني

لقد كانت رقعة الانتشار الماروني متحركة بمقدار ما تعرض له الموارنة من ضغط واضطهاد، البعض منهم تواجدوا، أول ما تواجدوا، في محيط أفاميا، من سورية الثانية وفق ما يقول المؤرخ هنري لامنس الذي اعتمد على ديونيسيبوس التلمحري. ثم انتشروا في منطقة سورية الثانية لا سيما في معرَّة النعمان وشيزر وحماه وحمص حتى وصلوا إلى منبج عاصمة سورية الثالثة فقنسرين وحلب ثم إلى أنطاكية فلبنان. . .

يذكر أن الصراع الذي كان مستمراً بين البدع المسيحية، (القائلين بالطبيعة الواحدة أو بالطبيعتين)، كان الدافع الأساسي للتحرك الماروني وتعديل خارطة انتشاره التي زاد الفتح العربي في تحريكها حتى استقرّ الموارنة في لبنان.

وقد بدأ تواجد الموارنة في لبنان في جبّتي بشري والمنيطرة ومن ثم توسعوا فيه إلى الوسط والجنوب معتصمين في أعالي الجبال الوعرة حفاظاً على وديعة إيمانهم المسيحي الخلقدوني من شرّ المنشقين والفاتحين، لاسيما في نهاية القرن الثامن.

وقد شكلت جبال لبنان القاسية ووديانه الوعرة ضالة الموارنة المنشودة طلباً للعزلة الضرورية للحياة الرهبانية التي هي في أصل الكنيسة المارونية. وفي هذا الإطار يقول الدكتور شارل مالك: «لا نعرف كنيسة أخرى خرجت من دير وتمحورت حوله كالكنيسة المارونية، فالروحانية المارونية الصلبة قد طبعت تاريخ هذا الوطن الصغير، لبنان، بطابعها الخاص. فمن دير مار مارون على العاصي إلى الوادي المقدس في شمال لبنان، حيث نبتت الأديار والمناسك، مروراً بسيدة قنوبين وسيدة يانوح وسيدة إيليج وسيدة حوقا ومار انطونيوس قزحيّا ومار ليشع في بشري وسيدة مشموشة وغيرها كثير. من هنا ندرك ما كان للدير الماروني من حدب على الشعب، رفقاً به وسهراً عليه ومدرسة له يتعلّم فيها الجهاد والصبر والجلد، ونزعة الحرية والاستقلال، حتى ليمكن الجزم بأن الدير الماروني هو بمثابة القلب من الشعب ينتعش بانتعاشه، ويذوي ويعتريه الوهن والهزال بضعفه

وهزاله...».

البطريركيّة والنظام الماروني

جاءت نشأة البطريركية المارونية نتيجة تفاعل جملة عوامل دينية وحضارية، فبعدما سحب الملك يوستنيانوس الثاني فرقة المردة من لبنان سنة ٦٨٦ وسلخها عن المردة الجراجمة الموارنة السوريين واللبنانيين، شعر المردة الموارنة بخيبة أمل كبيرة لفقدانهم دعماً متيناً، ويقول المؤرخ تيوفانيس وغيره من مؤرّخي بيزنطيا «إن تصرف الملك يوستنيانوس كان بنظرهم خيانة كبرى لقضيتهم ولقضية المسيحية في الشرق وللمملكة البيزنطية ذاتها».

وقرر الموارنة أن يعوّضوا المدد الذي فقدوه بسحب «المردة الروم» من بينهم بإقامة رئاسة دينية وزمنية معاً تركّز كيانهم على قوة ذاتية داخلية وقيادة منبثقة منهم لا من قوة خارجية.

ففي سنة ٦٨٦م، أي في السنة نفسها التي سحب فيها يوستنيانوس الثاني فرقة المردة من لبنان انتخب الموارنة بطريرك الطائفة الأولى يوحنا مارون «بطل القومية المارونية وباني موطنها على جوانب وادي قاديشا وفي ظلال الأرز. وفي عهده برزت أولى الخصائص القومية التي جعلت من هذا الشعب أمة»[١].

وكان من الطبيعي أن يتّجه البطريرك الذي أقامه الموارنة صوب روما لأنه لم يكن يأمل في الحصول على التأييد من الملك البيزنطي. وكان البابا الروماني في تلك الفترة سركيس السوري الأصل (٦٨٧ ـ ٧٠١). ومن ثم كان من الطبيعي أيضاً أن يوجه البطريرك الماروني عناية خاصة للبطريركية الأنطاكية وخاصة للمسيحية في سورية وللموارنة.

لقد أغضب إقدام الموارنة على انتخاب بطريرك لهم الملك البيزنطي يوستنيانوس الثاني. وتقول بعض النصوص المارونية القديمة أن يوستنيانوس ردّ

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

بتجريد حملة عسكرية ضد الموارنة وبطريركهم. وكان على رأس هذه الحملة القائدان موريق وموريقان وحصل ذلك سنة ٦٩٣م.

وكانت هذه الحملة مستغربة إذ كان بين عبد الملك بن مروان ويوستنيانوس الثاني معاهدة، فهل كانت هذه الحملة نقضاً للمعاهدة، أم أنها تمّت بموافقة الخليفة الأموي واليعاقبة أعداء الموارنة؟

وكان يوستنيانوس الثاني قد ضرب السلاف في البلقان ونقل منهم ٣٠ ألفاً إلى المناطق الجبلية بين سورية والبلاد البيزنطية وذلك سنة ٦٨٩ واطمأن إلى أن هؤلاء يحلّون محلّ الجراجمة الذين سحبهم من لبنان. كما كان مطمئناً من أن الوضع العربي الإسلامي ضعيف بسبب الحروب الداخلية (ثورة عبد الله بن الزبير).

وانجلت المعركة عن انتصار الموارنة وعلى رأسهم البطريرك مار يوحنا مارون بعد أن اصطدمت القوة البيزنطية في أميون بقوات من الموارنة ونتج عن هذه المعركة مقتل القائدين البيزنطيين. فدفن موريق في أميون وأقيمت كنيسة على قبره. وقد تزعم الموارنة في هذه المعركة المقدّم إبراهيم ابن أخت البطريرك الذي نظم جيشاً من ١٢ ألف جندي تعويضاً عن الاثني عشر ألفاً من المردة الذين سحبهم الملك يوستنيانوس.

وقد رسخت هذه المعركة انفصال الموارنة عن بيزنطية سياسياً وجعلتهم كياناً مذهبيّاً مستقلاً عن غيره.

وبحسب التقاليد والنصوص المارونية القديمة فإن مار يوحنا مارون عندما طارده عسكر يوستنيانوس الثاني لجأ إلى جبيل واعتصم في قلعتها والمعاقل المحيطة بها. وفي الواقع يوجد في هذه القلعة بئر يطلق عليه الأهالي حتى الآن اسم بئر مار يوحنا ويقصد به مار يوحنا مارون. وكذلك في وادي حربا جنوبي القلعة عين ماء يسميها الأهالي عين مار يوحنا، أي مار يوحنا مارون أيضاً. وهنالك أيضاً معبد صغير في كهف في ذلك الوادي وفيه مذبح اسمه مذبح مار يوحنا، أي مار يوحنا مارون. ويقول الأهالي أن البطريرك الماروني كان يختبىء في هذا الكهف ويقيم فيه القداس في أثناء معاركه مع جيش يوستنيانوس. واسم وادي

حربا يعني وادي الحرب، فاللفظة سريانية وربّما تشير إلى المعارك التي دارت بين الموارنة وعسكر يوستنيانوس حول قلعة سمار جبيل في أواخر القرن السابع.

وبعد هذه المعارك وانتصار الموارنة قبل الملك البيزنطي بالأمر الواقع واستأنف علاقاته الطيبة مع المردة الموارنة.

وهكذا استقبل الموارنة القرن الثامن وهم كنيسة منتظمة لها نظامها الهيراركي المتسلسل وعلى رأسه بطريرك، وهم أيضاً يؤلفون كياناً وطنياً متين الدعائم يملك جهازاً عسكرياً قوياً. وإطار هذا الكيان لبنان من بلاد الشوف حتى عكار ومن البقاع حتى البحر. ووطدوا نظامهم السياسي على الدعائم الثلاث وهي: القوة الذاتية الداخلية، المعاهدة مع العرب، وحسن العلاقات مع الغرب أي الكرسي الروماني والمملكة البيزنطية. وكان البطريرك «يرأس السلطتين الزمنية والدينية معاً، فكان يمارس السلطة الدينية بواسطة أساقفة هم معاونون له يديرون ويرعون، كمندوبين من قبله لا كمطارنة مستقلين، مختلفْ الابرشيّات والأديار المارونية ويقيمون معه وفي بعض الأديار. أما السلطة الزمنية فكان يفوض ممارستها إلى أمراء دعوا أولاً رقباء ثم مقدّمين يعملون بإشراف البطريرك[١]».

وهكذا نرى أن الموارنة كانوا في العهد البيزنطي مجموعة من الأديار والمؤمنين الملتفين حول هذه الأديار في أنحاء شتى من سوريا ولبنان وخاصة في جبال اللكام وجبة المنيطرة وجبة بشري ومنطقة دير القمر والشوف في لبنان. وكانت هذه المجموعة «المارونية» في ذلك العهد تؤلف منظمة دينية وحضارية مع بعض الصفات العسكرية.

ومنذ الفتح العربي ارتبط الجراجمة والموارنة، وهم طغمة عسكرية، مع الفاتحين بمعاهدة تعترف باستقلالهم وحكمهم الذاتي وحريتهم السياسية والدينية والاقتصادية. وتجدّدت هذه المعاهدة في عهد معاوية الذي التزم بموجبها تأدية ما للجراجمة المردة الموارنة. ثم تجدّدت في زمن عبد الملك بالشكل ذاته، ثم في

---

(١) تاريخ الموانة، الأب بطرس ضو.

أيام الوليد بن عبد الملك في أوائل القرن الثامن. ومنذ الغزو العربي تحوّلت المارونية بقيادة المردة الجراجمة في سورية وأمير المنيطرة الماروني في لبنان منظمة دينية وعسكرية وحضارية معاً. ودامت الحال على هذا المنوال حتى سنة ٦٧٧م.

وفي تلك السنة، وبدعم من المملكة البيزنطية، تحوّلت كلّ هذه العناصر إلى قوة دينية ووطنية ذات جهاز عسكري منتظم وقوي عدة وعدداً. وأنشأت هذه القوة كياناً وطنياً مستقلاً تمتدّ حدوده من اللّكام حتى فلسطين. ومنذ سحب الملك يوستنيانوس الثاني فرقة المردة البيزنطيين من لبنان انكمشت حدود هذا الوطن ضمن رقعة تمتدّ من الشوف حتى عكار. وتحولت هذه القوة المارونية ضمن هذا الإطار الوطني وتحت تأثير العامل العربي من جهة، والعامل البيزنطي من جهة ثانية، إلى كيان ديني كنسي ووطني معاً يتمتّع بالاستقلال والحكم الذاتي ويترأسه البطريرك بصفته ملكاً دينياً وزمنياً معاً ويحكمه بموجب دستور أو نظام صارم.

لا شكّ في أن المعاهدة التي أبرمها الجراجمة الموارنة مع الخلفاء والأمان الذي نادى به عبد الملك في الجراجمة والأنباط تابعيهم، أي السريان، سهّلا على الموارنة إقامة البطريركية. وفضلاً عن المعاهدات والمواثيق الرسمية التي تنهى العرب عن التعرض للجراجمة الموارنة بشؤون دينهم وتمدّهم بالأمان من جهة المسلمين، كانت أواصر الصداقة تربط العرب والخلفاء بالموارنة وأديارهم. فيزيد بن معاوية نزل بدير مُرَّان، أي مارون، وكذلك الوليد بن يزيد. وعبد الملك كان يقضي الربيع في دير مرّان الموجود في دمشق وهو الذي جدّد المعاهدة مع الجراجمة المردة الموارنة. والوليد بن عبد الملك مات في الدير نفسه وهو أيضاً جدّد المعاهدة المذكورة. وعبد العزيز كان يقيم في هذا الدير أيضاً وابنه عمر بن عبد العزيز، خامس الخلفاء الراشدين، أقام ومات في دير مُرّان عند معرة النعمان ولا يزال ضريحه قائماً هناك ضمن مسجد وبجانبه قبّة من العهد البيزنطي وهي من بقايا دير مار مارون.

وكانت أعراس بني مروان تقام في دير مُرَّان في دمشق. ومروان بالعربية هي مارون باللغة الآمورية الفينيقية ومن ثم بالسريانية كما أوضحنا آنفاً. ومن الخلفاء

الذين نزلوا أيضاً في دير مار مارون الرشيد والمأمون والواثق.

وهكذا لم تنقطع صلات المودة الوثيقة بين الموارنة وأديارهم وبين الخلفاء. وهذه المودة كانت أقوى وأهمّ من المواثيق والمعاهدات، وقد مكّنت الموارنة بسهولة من تنظيم كنيستهم وإقامة بطريركيّتهم وهكذا فإن الطائفة المارونية هي أقدم الطوائف الكاثوليكية في الشرق، ولكنها تتميّز باستقلاليّتها الدينية الطقسية مع ولائها الديني للكرسي البابوي في روما. ولا يزال البطريرك الماروني يلقب إلى يومنا هذا ببطريرك أنطاكية وسائر المشرق.

وقد احتفظت الكنيسة المارونية باللغة السريانية إلى يومنا هذا. وخدمة القداس الماروني مأخوذة عن تلك التي تعزى إلى القديس يعقوب. وقد احتفظت الجاليات المارونية في المهجر بطقوس كنيستها كما هي الحال في إيطاليا وفرنسا والأميركتين الشمالية والجنوبية وفي أوستراليا وأنحاء أخرى من العالم.

يوحنا مارون أول البطاركة الموارنة

ولد يوحنا مارون، أول بطريرك للطائفة المارونية، في سروم بالقرب من أنطاكية، درس السريانية والإغريقية في أنطاكية قبل أن يلتحق بدير مارون في وادي العاصي. تابع دراسته في القسطنطينية وسيم أسقفاً حوالي سنة ٦٧٦ على البترون على الساحل الشمالي من لبنان. وكان مقرّه أوّلاً في سمار جبيل. ومن هناك انتقل إلى كفرحي على مسافة عشرة أميال شرقي البترون. وتقوم اليوم مدرسة تعرف باسمه على البقعة من الأرض التي اختارها لبناء دير ومقبرة له. ويقول المؤرخ فيليب حتي عنه: «لقد استطاع يوحنا مارون بقيادته الحكيمة أن يجعل من الموارنة شعباً ذا سيادة وقد استطاع بدهائه أن يردّ خليفة المسلمين باليد الواحدة وامبراطور الروم بالأخرى».

أقام مار يوحنا مارون وبعض حلفائه في النصف الأول من القرن الثامن في دير مار مارون الواقع شرقي كفرحي في بلاد البترون. وكان البطريرك يتردد إلى سورية حيث يقيم في دير مار مارون وأحياناً في أنطاكية حيث كان للموارنة كنيسة.

وفي أواسط القرن الثامن نقل البطاركة كرسيهم إلى يانوح (المغيري اليوم بين قرطبا والعاقورة) ضمن جبة المنيطرة بين منطقتي كسروان والشمال. وكان الوطن الماروني يمتدّ بين عكار شمالاً والشوف جنوباً. وكانت للموارنة سطوة عظيمة كما يتضح من تاريخ ابن القلاعي ومن وثائق لدى الأمراء الأرسلانيين وغيرها.

ويقول جبرئيل القلاعي اللحفدي: «كان الموارنة في دخول الإسلام بلاد الشام يسكنون جبل لبنان ويحكمون باقتدارهم في الجبال والسواحل التي تجاورهم ويعتقدون في إيمان الكنيسة الرومانية الرسولية، سائرين بحقوق الطاعة لبطركهم، ويحامون عن الدين المستقيم وينتصرون لكلّ من يقبل إليهم منهزماً بغرض الأمانة من أصحاب الكفر والبدع. وكانت بلادهم من حدود بلاد الشوف إلى بلاد الدريب (عكا)».

زجلية ابن القلوعي في وصف حياة الموارنة

وقد وصف ابن القلاعي في زجلّيته المشهور حياة الموارنة في ذلك العصر فقال:

لكن التواريخ بتخبرنا | عن ما جرى في مواطِننا
والذين كانوا قبلِ منا | سكان في جبل لبنان
كان ملوك منهم وأبطال | أحموا السواحل والجبال
وذكروا عنهم الأجيال | وقالوا في جبل الله سكان
واللَّه كان معهم ساكن | ويحمي القرايا والمواطن
ويرفع لمن هو متكامن (متواضع) | ويعطيهم حكم على الأعوان
ويغضب سكان السواحل | يعطون الطاعة عاجل
ويأتون في من هو غافل | وعاصي يحضر في الليوان
ويتحاكم بعدل الناموس | كما يأمر كرسي بطرس
وكان راتب (مرتب) لمن هو محبوس | يخلص حياته في الإيمان

إن كان من أمه غريبه — يطلب دين المسيح طيبه
ويخلص من كل مصيبهْ — ويكون محمي من الأعوان
تدق النواقيس في البلدان — ويفتهمون سر الإيمان
ويجي البطرك والمطران — وإشارتهم تحت الصلبان
ويحضر من هو متحاكم — وعلى طغيانه صار نادم
ويعترف أنو كان عادم — ويعطى لجهنم والنيران
وبعد اعترافه واعتماده — باسم يسوع صار سعاده
ويترك أهله وبلاده — ويسكن بجبل لبنان
ويعطيه البطرك مسكن — ويقويه حتى يتمكن
وفي أسرار الدين يتركّن — ويجاهد لأهل الإيمان
وكانوا متّحدين في الدين — والكلّ لأجله مجتهدين
كما الغني كما المسكين — طوع ومحبة مع إيمان
وليس كان مقالات تتغيّر — ولا كان حاكم يتدبّر
ولا كان ظالم يتجبّر — على مسكين في تلك الآن
وهرطيقي ليس كان عندهم — ولا مسلم يسكن بينهم
ويهودي إن كان يوجد عندهم — قبره تكشفه الغربان
والبطرك كان له سطوه — والحاكم كان له نخوه
وكانوا الاثنين أخوه — في العفة وفي الإيمان
أمانة واحدة مجهوره — وآيات صادق منظورهْ
وأسرار وأحكام مستوره — ما يعلم فيها إنسان
أمانة نقية بغير إزغال — نظيفة من زبل الأبغال
ولا كان ساحر ولا محتال — يثبت في جبل لبنان
والرذايل منه مبغوضة — ومحمي في سيف الإيمان

واحـمـوه مـن حـد انـطـلـيـاس   ورسـمـوا أسـقـف فـي الـراس
وفـي انـطـلـيـاس بـنـوا قـلـعـة   والـحـاجـريـة كـانـت تـدعـى
بـحـر صـاف عـنـهـا مـرتـفـعـةْ   وضـعـوهـا كـرسـي لـلـمـطـران
وبـنـوا بـرج عـلـى الـدرجـة   وأسـقـف بـحـنّـس فـي الـخـارجـه
وفـي الـعـرعـار كـان لـه فـرجـه   بـسـاتـيـن تـفـاح مـع رمـان
بيروت العتيقة (بيت مري) دمسها   قـطـع الـمـيـاه واعـكـسـهـا
نحو العطاشانة (قرية لبنانية) ادرسها   وجـدد مـزارع مـع سـكـان
زرعـون تـرشـيـش والـوادي   سـكـنـوا فـيـهـا الأسـيـادي
فـرسـان وأبـطـال وأجـنـادي   تـتـشـرف عـلـى تـلـك الـبـلـدان

الكنيسة السريانية

إن الموارنة فرع من الكنيسة التي كانت لغتها السريانية، أما الفرعان الآخران فهما الكنيسة السريانية الشرقية والكنيسة السريانية الغربية. وخدمة القداس في الكنيسة السريانية أقدم عهداً من خدمة القداس اليونانية أو اللاتينية. وهذه الخدمة تعزى إلى القديس يعقوب ورئيس كنيسة القدس، ولا شكّ في أنها أقدم خدمة في الكنيسة المسيحية. فإنها في أصولها ترجع إلى العشاء الرباني الأخير وإلى اجتماع الرسل في العليّة. وقد احتفظت بطابعها السرياني حتى في الكنائس التي تعترف بسلطة البابا.

الكنيسة السريانية الشرقية

تأسس الفرع الشرقي للكنيسة السريانية أو الكنيسة الشرقية عند منصرم القرن الثاني، ولكنَّها تدعي أنها بتعاليهما وطقوسها وتقاليدها تعود إلى عهد أقدم من هذا بكثير، فهي تعود إلى عهد الملك أبجر ملك الرها، أو أيدسا الذي كان معاصراً للسيد المسيح. وتقول الرواية أن هذا الملك، أبجر الأسود، بعث برسالة إلى السيد المسيح يدعوه فيها إلى زيارة أيدسا ليشفيه من داء النقرس الذي كان مصاباً به. غير أن السيد المسيح وعده بأنه سيرسل له رسولاً بعد صعوده إلى السماء (يحيى ابن سعيد الأنطاكي). وفي رسالة السيد المسيح له يقول إنك ستشفى لأنك آمنت بي ولم ترني.

وتعرف هذه الكنيسة بالنسطورية نسبة إلى نسطور الكيليكي أسقف القسطنطينية (٤٢٨ ـ ٤٢١). وقد حُرِمَ نسطور بعد أن حُكِمَ عليه في المجمع الكنسي المسكوني الذي عقد في أفسس وذلك بسبب تعاليمه القائلة بأن الأقنوم الإلهي (الكلمة) والإنساني اتحدا اتحاداً تاماً كاملاً في المسيح، ولكن لم يكن الاتحاد في طبيعة واحدة، أي أن في المسيح أقنومين أو شخصين. وهذا يخالف المعتقد

الأرثوذكسي (أي المعتقد القديم الذي تقول به الكنيسة) الذي يقول أنه بالرغم من أن في المسيح طبيعتين فإن هاتين الطبيعتين اتحدتا في شخص واحد. والكنيسة الشرقية تعتبر الأسقف نسطور من آباء الكنيسة اليونانية لا من الآباء السريان. وقد كان لهذا المعتقد، اتباع عديدون في سورية، ومنها انتشروا شرقاً إلى بلاد ما بين النهرين. وهذه التسمية، أي الكنيسة النسطورية، التي أطلقت أولاً على الكنيسة الشرقية لرفضها تحريم نسطور ولعنه، أصبحت فيما بعد تسمية غير مستحبة بين أتباع هذه الكنيسة، لا سيّما بعد أن انضمّ فرع منها، وهم الكلدانيون، إلى الكنيسة الكاثوليكية في روما وأصبحت الكنيسة الكاثوليكية الرومانية تطلق هذا التعبير على أنه سمة للهرطقة. ويجب التفريق بين الكلدانيين القدماء الذين عاشوا في جنوبي العراق في التاريخ السابق للتاريخ الميلادي وبين الكنيسة الكلدانية وأتباعها، إذ قد لا يكون هنالك قرابة عرقية بين الاثنين.

وفي القرن التاسع عشر أطلقت الإرسالية الأنغليكانية التي كانت تعمل في شمال العراق اسم «الكنيسة الآشورية» على السريان الشرقيين ممّا زاد في فوضى الأسماء.

وقد انتشرت الكنيسة الشرقية من أيدسا شرقاً إلى إيران. وعند ظهور الإسلام كانت الكنيسة الشرقية لا تزال تحتفظ بنشاط وحيوية استطاعت معهما إرسال بعثات تبشيرية إلى الصين، وقبل ذلك أرسلت مثل هذه البعثات إلى الهند.

الكنيسة السريانية الغربية

كانت العقيدة اللاهوتية التي قال بها الفرع الغربي للكنيسة السريانية عقيدة أصحاب الطبيعة الواحدة (المونوفيسيت) التي كانت تقول بوحدة طبيعة المسيح وتقلّل من أهمية الطبيعة البشرية. والحقيقة أن أصحاب الطبيعة الواحدة هم الذين رفضوا الأخذ بالرأي القائل أن في المسيح طبيعتين (لاهوتية وناسوتية). ذلك الرأي الذي أقرّه المجمع الكنيسي الخلقدوني الذي عقد سنة ٤٥١.

وفي مستهل القرن السادس ازداد اتباع أصحاب الطبيعة الواحدة ازدياداً كبيراً

في شمال سورية وذلك بفضل شخصية ونشاط صفيروس أسقف أنطاكية (٥١٢ ـ ٥١٨). أما الفضل في تنظيم هذه الحركة في سورية فيعود إلى يعقوب البرادعي أسقف أيدسا (الرها حوالي ٥٤٣ ـ ٥٧٨). وقد أصبحت الكنيسة السريانية المنادية بالطبيعة الواحدة تسمى باسمه فيما بعد أي الكنيسة اليعقوبية، واتباعها سمّوا باليعاقبة.

أما يعاقبة اليوم فإنهم يؤثرون أن يسموا[٦] بالسريان الأرثوذكس أو السريان القدماء. وقد انتشرت الكنيسة اليعقوبية من سورية إلى أرمينيا حيث أخذت بها الكنيسة الغريغورية، وإلى مصر حيث أخذت بها الكنيسة القبطية.

الملكيون

وكان إلى جانب الكنيستين السريانيتين الشرقية والغربية وما تفرّع عنهما جماعة أخرى وقعت تحت تأثير اللاهوت الإغريقي حيث كان مصدره أنطاكية والقسطنطينية. وقد قبلت هذه الجماعة مقرّرات المجمع الكنسي الخلقدوني (٤٥١) بدون تحفظ. وبسبب ذلك عرف هؤلاء بأرثوذكسيتهم (إتباعهم الإيمان الكنسي القويم) ونجوا من الحرم ونالوا حماية كنيسة الدولة وعطف العاصمة الامبراطورية. وقد أخذ خصومهم، من المسيحيين السريان فيما بعد، وخاصة في أيام الملك يوستنيانوس الثاني (٦٨٥ ـ ٦٩٥)، يطلقون عليهم لقب «ملكيون». وكان جلّ اتباع هذه الطائفة من سكان المدن ومن أبناء الجاليات اليونانية، وقد استعيض تدريجياً عن السريانية بالإغريقية كلغة للفروض والطقوس وحلّت خدمة القداس البيزنطية محلّ الخدمة السريانية. وبالرغم من أن هذه الطائفة كانت تحظى بعطف الامبراطور وحمايته فقد ظلت طائفة مستضعفة، وصارت تسمى بالروم الأرثوذكس وخدمة القداس عندهم هي الخدمة المعروفة بخدمة القديس باسيل التي تعزى إلى باسيليوس أسقف قيسارية الذي توفي عام ٣٧٩. وقد أدخل القديس يوحنا كريصوصطم أسقف القسطنطينية (٣٩٨ ـ ٤٠٤) بعض التعديل على خدمة القداس.

ومن الغرابة أنه في العصور المتأخرة أصبحت التسمية «ملكي» أو «روم ملكي» تطلق على المسيحيين الذين تركوا الكنيسة الأرثوذكسية بسبب الأعمال التبشيرية التي كان يقوم بها المبشرون الكاثوليك وانضموا إلى روما (١٧٢٤) وصاروا يعرفون بالروم الكاثوليك. ذلك لأن خدمة القداس عندهم لا تزال بالإغريقية وهي لا تختلف عن خدمة القداس في الكنيسة الأرثوذكسية إلا بذكر قداسة البابا، بابا روما. ولكنهم يقولون بأن صلتهم بكنيسة روما ترجع إلى أقدم العصور وأن هذه الصلة لم تنقطع يوماً. أما بطريركهم فيقيم في لبنان تارة وفي مصر تارة أخرى.

الدروز ـ مذهب الموحدين

بعد أن توطن الموارنة شمال لبنان، بدأت طوائف إسلامية تحالف السنّة في عقائدها وهي الشيعة والإسماعيلية وجماعات عرقية مختلفة من فرس وعرب تنزح إلى لبنان الجنوبي، وراحت هذه الأقوام تندمج، ومن اندماجها نشأ الدروز في منتصف القرن الحادي عشر. واندمج هؤلاء النازحون الجدد، كما فعل قبلهم الموارنة إذ اندمجوا بالسكان الأصليين من العرق الآرامي[١].

إن اسم الدوز يعود إلى داعٍ تركي الأصل هو محمد بن إسماعيل الدَرَزي (وهي لفظة فارسية معناها خيَّاط) الذي كان أحد أعوان الخليفة الفاطمي السادس في القاهرة، الحاكم بأمر الله (٩٩٦ ـ ١٠٢١م)، وهي تسمية لا يرضى عنها الدروز أنفسهم، لأنهم انتفضوا عليه، وأنكروا دعوته، وذلك لتعاليمه الإباحية. وهم يفضلون اسم «الموحدين» ولقب «بني معروف». أما اسم الدرزية فلا يقبلون به وقد أطلق عليهم كرهاً. ولكن «الدروز» عُرفوا بهذا الاسم منذ نشأتهم وفي تاريخهم. والتسمية هذه لها تفسيرات عدة، يرجعها بعضهم إلى المدعو الشيخ حسين الدرزي أحد كبار فلاحي مصر، وهو أول من أيّد دعوة الحاكم بأمر الله وسار في ركابه. يشار إلى أن الشيخ حسين الدرزي هو غير محمد بن إسماعيل الدرزي الملقب بانشكتين وهو من الدعاة الأُوَلْ.

وفي تفسير لغوي لبطرس البستاني يقول: لغوياً يقال دَرَزَ الرجل أي تمكن من نعيم الدنيا وخيراتها، «الدَرَزُ» هو النعيم (كلمة فارسية معربة).

ويقول عبد الله النجار: «بناء على ذلك، الدروز إذن هم أتباع نعيم، أي الذين سيدخلون حتماً إلى جنات عَدْنٍ، إذا ساروا في طريق قويم...».

---

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

ويعتقد البعض أنها نسبة عسكرية لا مذهبية إلى القائد الفاطمي الأمير أنوجور أبي منصور أنوشتكين الدرزي الذي قاد الدروز في قتالهم في الاقحوانة حيث أن هذه المعركة كانت امتحاناً لقوة الدروز وصلابتهم لذلك كان لها مقام عظيم في التاريخ الدرزي.

والدروز يفضلون اسم «الموحدين» نسبة إلى عقيدتهم الأساسية في «توحيد الله». وكثيراً ما يرد هذا الاسم في «رسائل الحكمة» وشروحاتها وسائر الكتب الدرزية.

وإلى جانب تفضيلهم اسم «الموحّدين» على اسم الدروز فإنهم يفضلون أيضاً لقب «بني معروف» حيث اختلف في أصله وأساسه الباحثون، فمنهم من يعتبره نسبة إلى قبيلة عربية اعتنقت الدرزية منذ نشأتها. ومنهم من يعتبره اشتقاقاً لغوياً من «المعروف» بمعنى الخير والإحسان، فيكون الدروز بالتالي «أبناء أو أصحاب الخير والإحسان». أو أيضاً «من عَرَفَ معرفة» بمعنى العِلْم، فيكونون بذلك «العارفين» و «أصحاب العرفان الذين ينالون المعرفة الإشراقية من لدن الله»، ومعنى ذلك أن «بني معروف هم أصحاب المعرفة الدينية الحقيقية النهائية».

وأيضاً من عَرف بمعنى «صَبَرَ»، و«العارف» هو «الصبور»، من دعوة الحكمة المستمرة إلى «الصبر والاحتمال». ويقول بهاء الدين نصر ابن فتوح: «ثبِّتِ الجماعة في كل موضع. على الستر وإجمال الحال... ويكونوا على الصبر والاحتمال». وهكذا يكون «بنو معروف» هم الصابرون على المحنة التي ألمّت بهم أيام علي الظاهر، الخليفة الفاطمي الذي تولى الحكم بعد الحاكم بأمر الله، إذ اضطهد الدروز قرابة الست سنوات.

وقد تجوز أيضاً تسمية الدروز «ببني معروف» مأخوذة من «الأَعراف» وهذا الاسم تطلقه الرسائل كثيراً عليهم، وهي مأخوذة من آية قرآنية تقول: «وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاً بسيماهم»[١].

إن الاعتقاد بالحلول أي بتجسد الله قديم العهد بين غلاة الشيعة. وهو اعتقاد يحاول فيه اتباعه أن يسدّوا الفجوة البعيدة التي تفصل الإنسان المحدود عن الله غير

(١) بين العقل والنبي، أنور ياسين، وائل السيّد، وبهاء الدين سيف الله.

المحدود، كوسيلة لإقامة علاقات شخصية إنسانية مع ذات الله. ويعتقد الدروز أن الله ذاته يتجسّد تسع مرات أو عشراً، وليس هذا المعتقد الدرزي الأساسي سوى استمرارا للعقيدة الإسماعيلة التي ينتهجها اتباع الإمام السابع اسماعيل الذين يعرفون أيضاً «بالشيعة».

وتختلف نظرة المؤرخين بشأن الحاكم بأمر الله، فبعضهم رأى فيه رجلاً غامض الأطوار لا يستقرّ على رأي ولكنه يتميّز بنزعته الاجتماعية، فهو كان محبّاً للعلم، فبنى دار الحكمة وجعلها مركزاً للأبحاث والترجمة، كما بنى الجوامع ووقف لها الأوقاف وأنشأ معاهد للعلم ومؤسسات للفقراء.

في حين اعتبره البعض الآخر مثال «الحاكم الظالم والطاغية الماجن» فهو من هدم كنيسة القيامة في القدس (١٠٠٩م) ونفى جميع المغنين والمهرّجين بعد أن كان قد شجع الجميع على «المجون والغواية»[(١)].

يقول يحيى بن سعيد الأنطاكي عنه: «ما من قبيلة إلا وقد قتل سادتهم... وقد قتل جبابرة الأرض وملوكها... وهذه الأفعال ليست فعل أحد من البشر».

ومن الأحكام الغريبة للحاكم منعه الناس من أكل الملوخية ومطاردة الكلاب. ويقول في هذا الإطار ابن خلكان في كتابه «وفيات الأعيان»: «... ومنع أكل البقلة الملوخية، والبقلة المعروفة بالجرجير، ومنع أيضاً أكل الطلنيس وسائر السمك العديم القشر، وحرّم ذبح الأبقار باستثناء ما كان منها ذا حاجة... وقتل سائر ما في مصر من الكلاب إلا كلاب الصيد». وقيل في سبب قتله للكلاب إنه كان يسير في ركبه ذات يوم فاعترض مطيّته كلب فوثب عليه وكاد يقلبه على الأرض. وقيل أيضاً إنها كانت تكثر النباح في الليل وتزعجه في تطوافه، فأمر بتطهير الطرقات منها».

و «حظر على النساء التبرج والذهاب إلى الحمامات العامة، وفرض على النصارى واليهود فروضاً شديدة الوطأة، فكان عليهم أن يلبسوا الثياب السود وأن

(١) خطط مصر، المقريزي.

يعتمروا العمائم، وحظّر عليهم ركوب الخيل ـ وإذا اقتضى الأمر ركوب الحمير ومنع عنهم الوظائف العامة».

وقد بويع الحاكم بالخلافة وهو بعد في الحادية عشرة من عمره، في سنة ٣٨٦ هجرية، وعندما بلغ الخامسة عشرة استقلّ بالسلطة، واستمرّ لغاية العام ٤١١هـ حيث قتل. وقد تعدّدت الروايات حول مقتله، فمن قائل أنه قتل في مؤامرة محكمة دبرتها أخته ست الملك التي كان قد ارتاب في مسلكها، إلى قائل بأنه في «الغيبة» ولن يلبث حتى يعود ظافراً عندما يحين الوقت. ويقول أحدهم في «غيبة الحاكم، وبفقده واختفائه بأنه لم يمت ولم يقتل، بل أراد امتحان دعاته والمنتمين إلى دعوته، فارتفع عنهم إلى السماء، وسيعود يوماً ليملأ الأرض عدلاً وقسطاً» (رسائل الحكمة).

نشأة الدرزية

في أوائل سنة ٤٠٨ هجرية ظهر في مدينة القاهرة ثلاثة رجال أعاجم هم حمزة بن علي بن أحمد الزوزوني المعروف باللباد، وحسن بن حيدرة الفرغاني المعروف بالأخرم، ومحمد بن إسماعيل الدرزي المعروف بأنشتكين، وقالوا بألوهية الحاكم بأمر الله بعدما عرفوا نفسيّته وشخصيّته وطموحاته البعيدة واضطراباته المرضية، ولمسوا لديه ميلاً عميقاً إلى اعتبار نفسه فوق مستوى البشر، ورأوا فيه دعوة آبائه وأجداده إلى الإلوهة «وهو أنهم آلهة، حلّوا على الأرض في أشباح بشرية، ومن العلّي لهم نور لاهوتي حال فيهم، ويظهر في كل عصر وزمان في صورة شخص من الأشخاص البشرية، وأن الدنيا وملوكها كلاً عليهم، وأنهم بين العالم لا يستأهلهم» (تاريخ الأنطاكي).

ولم ينكر الحاكم دعواهم واستجاب الكثير لهذه الدعوة. وكان الدرزي، على ما يبدو أسبق الدعاة إلى نشر الدعوة الجديدة، حتى انتسبت إليه، وتسمّت باسمه.

وكان الحاكم بأمر الله خلال هذه الفترة قد قطع الصلاة والخطبة في الجوامع، وعطّل الحجّ إلى مكة، وقطع عن الكعبة كسوتها. . . . مما أثار حفيظة

المسلمين «الذين عملوا أشعاراً يكفرونه فيها، وترنموا بأغانٍ تتضمن شتيمة له، وألفاظاً قبيحة يشيرون بها إليه... فازداد غضباً عليهم» (تاريخ الأنطاكي).

وهكذا نرى أن الدعوة في مصر لم تلق آذاناً صاغية، إذ اهتاجت الجماهير عند سماعها إعلان ربوبيّة الحاكم فما كان من الدرزي إلا أن هرب من مصر ناجياً بنفسه من غضب الجماهير والتجأ إلى وادي التيم عند سفح جبل الشيخ حيث قضى سنين في الدعوة إلى الحاكم، ولاقت دعوته تربة صالحة، إلا أنه قتل على يد جنود أتراك وقد قبّح تعاليمه وشهر بها الداعية الآخر حمزة اللباد الزوزوني الذي كان الزعيم الفكري للدعوة الجديدة، إذ أنه وضع فلسفة العقيدة الدرزية.

وكانت فلسفته اللاهوتية باطنية في طريقتها، أي أنها تقول بأن للنصوص معنى باطنياً غير معناها الظاهري، وهذا المعنى لا يفقهه إلا الأئمة والراسخون في العلم. والحقيقة في نظر الباطنية يجب أن يبحث عنها في المعنى الخفي الباطن لا في المعنى الحَرْفِي الظاهري الذي ليس سوى حجاب يستر الحقيقة عن أعين الجهال الذين لم يقفوا بعد على الأسرار الداخلية. وقد قتل حمزة في القاهرة أثناء هياج الشعب بعد موت الحاكم بمدة قصيرة.

وكان خليفة حمزة في نشر الدعوة تلميذ، ربما كان سورياً مسيحيّاً اسمه المقتنى بهاء الدين الذي عاش فترة من الزمن متخفياً ولم يعرف على وجه التدقيق أين، في مصر أم في سورية. وقد بعث بهاء الدين برسائل عديدة إلى الاتباع والعامة في أماكن مختلفة متباعدة مثل بيزنطية والهند يدعوهم فيها إلى قبول الدعوة. ومجموع هذه الرسائل يشكّل بعض كتب الدروز الدينية التي يقرأونها ويتدارسونها في خلواتهم. فقد بعث مثلاً برسالة إلى الامبراطور قسطنطين الثامن (١٠٢٥م - ١٠٢٨م) وهي الرسالة الموسومة بالقسطنطينية. وبعث برسالة أخرى يردّ فيها على النصارى وهي الرسالة الموسومة بالرسالة المسيحية. ويعزى إليه كتابة أربعة كتب من كتب الدروز الدينية، ممّا يضعه في المقام الأول بين كتّابهم الدينييّن. وآخر من شرح رسائل بهاء الدين كان عبد الله التنوخي المتوفى سنة ١٤٨٠ ميلادية، ومزاره موجود لغاية اليوم في بلدة عبيه الشوفية.

قبيل وفاته حدّد بهاء الدين معالم الطائفة الدينية الجديدة: أثناء غيبة الحاكم يجب أن تفشى أسرار الدين أو أن تعلن للناس. ولا شكّ في أن الإصرار على إبقاء الدين أمراً سرّاً أملته عليهم الظروف السياسية، فهم كانوا فرقة صغيرة العدد تحاول البقاء في وسط عدائي قوامه السنة والشيعة والنصيرية[1]. وقد أعلن بهاء الدين أن العالم لا يستحق أن ينال البركات والنعم التي وعد بها الدين الجديد لأتباعه. ومنذ ذلك الحين «أقفل باب الدعوة». فلا يقبل جديد ولا يقبل مرتد. وهم يمنعون كتبهم، التي هي دائماً بشكل مخطوطات إذ لا يجوز طبعها، حتى عن الدروز الجهال. أما العُقَّال فيجوز لهم أن يقرأوا هذه الكتب. ولا يصل درجة العُقال إلاّ من كان منهم رجلاً حسن الأخلاق عالي الهمّة يوثق بصلاحه وبقدرته على كتمان السر. وقبل أن يقبل الدرزي في عداد العقال يمرّ في امتحان قاسٍ يختبرون فيه صبره وجلده وحسن سيرته. وبعد أن يبرهن الرجل على أنه أهل لهذا المقام، فإن العقال منهم يدخلونه في عدادهم بنوع من التكريس. وعلى العاقل أن يتمسك بأهداب الفضيلة والأخلاق وعليه أن يسلك سلوكاً حسناً يتميّز بالرصانة والوقار.

والمرأة الدرزية إذا كانت من أهل الصلاح والتقوى فإنها تدخل في عداد العاقلات المتديّنات. والدروز يختلفون عن المسلمين في أنهم لا يسمحون بتعدّد الزوجات، بل إنهم يتزوجون امرأة واحدة. ويقيمون صلواتهم الجماعية ليلة الجمعة في أبنية غاية في البساطة والتقشّف تسمّى خلوات، وأقدمها وأرفعها مقاماً عندهم خلوات البياضة قرب حاصبيا. وإلى الجنوب الشرقي من هذه الخلوات خلوة شبعا التي نهب كتبها جيش إبراهيم باشا عام ١٨٣٤، فكانت المرّة الأولى التي تعرّف فيها العالم على كتبهم.

والموحّدون يؤمنون بالتقمص، أي بانتقال النفس من جسد بشري إلى جسد

(١) تاريخ لبنان، فيليب حتى.

آخر. ويختلف المَعَاد الدرزي (الاسكانولوجيا) اختلافاً جوهرياً عن المعاد الإسلامي الذي يقول بحياة واحدة للإنسان وبجنّة ونار ماديّتين وبيوم للحساب والقضاء رهيب وبنهاية هذا العالم وزواله، في حين يقول المعاد الدرزي بتعدد الحيوات (جمع حياة)، أي بتقمّص الأرواح ونقلتها من جسد إلى جسد، وبأدوار للخليقة متلاحقة وبجنّة ونار روحيتّين وبنهاية لهذا العالم بنهاية أديانه ومذاهبه.

وتعتبر الدرزية أن دور الحياة الحاضرة هو آخر الأدوار، في نهايته الحاكم يتجلّى بمجد عظيم وغلبة لا تقهر، وتحشر جميع النفوس في دين التوحيد أو تحت حكمة السعيد. وتكون للموحدين سعادة لا يوصف بهاؤها، وللمخالفين عذابات لن تنقضي وقهر يساوي أضعافه ما حلّ بأهل الدعوة المنكوبين[١].

أما غاية التقمص فهي امتحان النفس وتطهيرها وترقيتها إلى درجات الكمال.

إنتشار الدرزية

لقد أعلن الموحّدون دعوتهم في وادي التيم بتشجيع من ولي عهد الحاكم في دمشق؛ عبد الرحمن بن الياس، ولكن هذا الإعلان جلب عليهم المشاكل؛ فقد هاجمهم أمير الأكراد ابن تالشليل فقتل منهم وسبى وأهلك خلقاً (خطط الشام).

وبعد الحاكم بأمر الله تولى ابنه الظاهر خلافة الفاطميين سنة ١٠٢١ ميلادية، فانتشرت الفوضى في لبنان وبلاد الشام واقتسم المملكة ثلاثة من أمراء القبائل العربية: سنان بن عليان، أمير بني كلب في المناطق الداخلية، وحسّان أمير بني طيّ في فلسطين، وصالح بن مرداس أمير بني كلاب في شمالي سورية ولبنان. وكان صالح بن مرداس من اتباع الدعوة الجديدة في البدء ثم انقلب عليها، لذلك أطلق عليه لقب «اللعين». وأدّى قيام القبائل وتعصّب المذاهب الشيعية الباطنية كالنصيرية، وبقايا القرامطة إلى تجمّد الدعوة وتقلّصها.

وأرسل الخليفة الجديد الظاهر، لإعزاز دين الله، قائداً تركياً نشيطاً في

(١) بين العقل والنبي، أنور ياسين، وائل السيّد، وبهاء الدين سيف الله.

الفاطميين هو الأمير أنوجور منصور أنوشتكين الدرزي (غير إسماعيل الدرزي)، فاجتمع إليه الموحدون في لبنان، وقاتل أنوشتكين ومعه الموحدون جموع القبائل التي قادها صالح بن مرداس وحسّان بن طيّ في الاقحوانة بالقرب من طبريا، التي يقع فيها مقام النبي شعيب الشهير، وكان انتصار أنوشتكين والدروز حاسماً، فعلّق القائد الفاطمي رؤوس القتلى على بوابة صيدا وأرسل رؤوس الأمراء إلى مصر (٤٢٠ هجرية ـ ١٠٣٠ ميلادية).

وكانت هذه المعركة امتحاناً لقوة الموحّدين الدروز وصلابتهم. لذلك كان لها مقام عظيم في التاريخ الدرزي.

ويصف سليم أبو إسماعيل هذه المعركة في كتابه «الدروز» فيقول: «هناك في سهل الإقحوانة وجوار حطين كان بناء الطائفة الدرزية العسكري المتين، وفيها تفيأت راية الأمير أنوشتكين، وانتسبت بفخر إليه، وهناك تعاقدت الأيدي. وعلى مقام شعيب القائم في الاقحوانة ما بين طبرية وحطين عقدت المواثيق، وتليت الأقسام، وعرفت الدرزية بأخوة سلاح معمودية دماء فرقة عسكرية... وعلى هذا لا يمكن بحث الدرزية كمذهب ديني لأنها ليست من ذلك في شيء».

قتل صالح بن مرداس في الاقحوانة «ولما عرف أصحاب صالح المقيمون في بعلبك وحمص وصيدا ورفينة وحصن أبي عكار بنبأ مقتله، تخلّوا عن هذه المدن جميعها واستعادها أصحاب السلطان (خطط الشام).

وهكذا فإن الدولة المرداسية لم تدم في لبنان أكثر من أربع سنوات (٤١٦ ـ ٤٢٠هـ) فيما استمرت في حلب وشمالي سورية.

واندفع أنوشكتين شمالاً لمتابعة قتاله لبني مرداس، فاصطدم بالبيزنطيين. وقد نشطت الدعوة الجديدة الدرزية في شمالي سورية، وتوقف النزاع مع البيزنطيين بعد اتفاقهم مع الخليفة الفاطمي الظاهر على إعادة تعمير كنيسة القيامة في القدس وتعمير باقي الكنائس التي خُرّبت سابقاً (٤٢٤هـ).

وتمكّن أنوشتكين من السيطرة على حلب سنة ٤٢٠هـ وبعد وفاته استقر

الدروز في الجبل الأعلى في شمالي سوريا وفي لبنان وفلسطين وأُقفل باب الدعوة.

فمن مهدها الأوّل في جنوبي لبنان أخذت الدرزية بالانتشار في الجبال شمالاً متحاشية الساحل والبقاع. وفي أثناء انتشارها انضمّت إليها قبائل عربية أو متعربة مثل التنوخيّين والمعنيّين وآل أرسلان وآل جنبلاط الذين تزعّموا الدروز ولا يزالون.

النصيرية

إن الطائفة النصيرية التي كانت تتوطن جنوبي لبنان عند ظهور الدعوة الدرزية تقيم الآن في منطقة جبال العلويين في سورية إلى الشمال من لبنان، وهم كالدروز فرع من الاسماعيلية. ويُرَّجح أنهم سموا بالنصيرية نسبة إلى رجل اسمه محمد بن نصير الذي كان أحد أتباع الإمام العلوي الحادي عشر الحسن العسكري. وكان محمد بن نصير من الكوفة وهو من رجال القرن التاسع.

وأقدم ذكر للطائفة النصيرية يرد في كتابات حمزة بن علي وغيره من كتاب الرسائل والمواعظ الدرزية. وهي طائفة تحتفظ بأسرار دينها وتمنعه عن الناس. أما نظامهم الاجتماعي والديني فمن النوع الذي يتميّز بالطبقيّة. وهم من الباطنية، أي الجماعة التي تقول بأن للنصوص الدينية معنى غير المعنى الظاهر أو المعنى الحرفي. ولا شك في أن هذه الطائفة التي خرجت كثيراً عن حظيرة السنّة كانت وستظل لغزاً في التاريخ الإسلامي(١).

(١) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، فيليب حتى.

الفصل الخامس

النزاع القيسي ـ اليمني
وتأثيره على لبنان

إن انتقال النزاع القيسي اليمني من المناطق الداخلية في بلاد الشام إلى لبنان يعود إلى انتشار القبائل العربية في البقاع ووادي التيم والجنوب وبيروت والغرب. وقد ظهر هذا النزاع بوضوح في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ـ ١٩٣هـ) في حوران ودمشق ومناطق متعددة من بلاد الشام. ولم يصل إلى لبنان إلا بعد نصف قرن بعد هارون الرشيد. وقد سبّب هذا النزاع القيسي ـ اليمني في بلاد الشام بالإضافة إلى ضعف العباسيين في عهد الأخوين الأمين والمأمون، والحرب بينهما إلى استيقاظ السفيانية ومحاولة إعادة الخلافة الأموية، وبالتالي إعادة المكانة إلى بلاد الشام بدلاً من العراق. وكانت المحاولة الأولى بالنسبة إلى لبنان في ثورة أبي العميطر ثم ثورة المبرقع.

ثورة أبي العميطر

إن قيام ثورة العميطر كانت استجابة للدعوة السفيانية التي انتشرت في أواخر العهد الأموي ومطلع العهد العباسي، وقوامها أن رجلاً من بني سفيان سيخرج ليعيد الحق إلى نصابه.

أما أبو العميطر فهو علي بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ظهر في الشام وأعلن نفسه أنه المهدي، وذلك في خلافة الأمين سنة ٨١١م، وقال إنه ابن شيخي صفين: الإمام علي ومعاوية. وقد مشت معه اليمنيّة، ووقفت في وجهه القيسيّة فانتقم منها انتقاماً شديداً، ومال إليه اللبنانيون في صيدا والجنوب والبقاع وبعلبك والسواحل وحاربوا معه القيسية، وكانت المعركة في منطقة شبعا من وادي التيم. وتزعّم ضدّه محمد بن بيهس الكلابي وتمكّن من تفكيك قوة أبي العميطر، إذ انقسم الثوار الأمويّون وقام منهم مسلمة بن علي المنتهى بمسلمة بن عبد الملك بن مروان، فادّعى الخلافة لنفسه وقبض حيلة على أبي العميطر، وتحمّس للقيسيّة. ففتح هذا الاختلاف لمحمّد بن بيهس المجال للقضاء على الحركة من

أساسها. ثم قامت حركة سفيانية ثانية في بدء حكم المأمون، قام بها سعيد بن خالد الأموي، في حوران وفشلت الحركة كذلك على يد محمد بن بيهس الكلابي.

واستمرّت المنازعات القيسيّة واليمنيّة في بلاد الشام، وكانت تتّخذ طابعاً انفصالياً عن الدولة العباسية في معظم الأحيان حتى وقعت ثورة المبرقع اللخمي.

ثورة المبرقع

المبرقع هو تميم أبو حرب اللخمي قام في الغور من الأردن ومالت إليه القبائل اليمانية ومنها قبيلة عاملة في جنوب لبنان، ونادى بنفسه أنه السفياني المنتظر. وجعل ثورته موسمية تعتمد على الفلاحين في غير أوقات عملهم. فأرسل إليه المعتصم قوة لمحاربته فانتظرت حتى انفضّ الفلاحون من حوله فهاجمه وأَسَرَه. وقيلَ إن المبرقع خسر في معركته مع العباسيين نحو ٢٥ ألف قتيل. ودامت حركة المبرقع سنتين من ٢٢٦ إلى ٢٢٧ هجرية.

أما في الداخل، فقد وصل إلى إمارة التنوخيين الأمير هاني بن الأمير مسعود. واشتهر هذا الأمير، كما يقول ابن عساكر، بمحاربته للمردة وانتصاره عليهم حتى لقّب بالغضنفر أبي الأهوال، وإن أخباره في محاربة المردة وصلت إلى بغداد في عهد الواثق بالله، فأرسل إليه الأمير خاقان التركي كتاباً يشكره فيه ويحثّه على الحرب، ويخبره أن حُسن سلوكه بلغ مسامع الخليفة. وقد خلفه في الإمارة التنوخية في لبنان سنة ٨٢٥ ميلادية الأمير إبراهيم بن إسحاق بن أرسلان.

وهدأت الحالة في لبنان، وبينما كانت الدولة العباسية تتفكك في الداخل، انتشرت فيها الثورات الاجتماعية الضخمة كثورة بابك ثم بعدها ثورة الزنج، بالإضافة إلى سيطرة العنصر التركي وتحكّمه بالخليفة، وعدم استقرار الخلافة. كلّ ذلك شجّع أصحاب الطموح على المحاولات الانفصالية. فقام عيسى بن الشيخ الشيباني فاستولى على فلسطين وعلى دمشق وجنوبي لبنان سنة ٨٦٩ ميلادية، ودعا الأمير اللبناني التنوخي إلى مساعدته فانضمّ إليه، ممّا يدلّ على التدهور الكامل

للدولة العباسية. وسار الأمير إبراهيم بن إسحاق برجاله إلى حوران فاجتمع بابن الشيخ في قرية أذرعان، وأصبح معهما عشرون ألف رجل، فأرسلت بغداد أماجور التركي ومعه ألف رجل فانتصر على الفريقين. ويقول ابن الأثير في ذلك في كتابه «الكامل في التاريخ»: فأنفذ المعتمد أماجور، وقلّده دمشق وأعمالها، فسار إليها في ألف رجل، فلمّا قرب منها أنهض عيسى إليه ولده منصوراً في عشرين ألف مقاتل، فلما التقوا انهزم عسكر منصور وقتل، فوهن عيسى وسار إلى أرمينيا عن طريق الساحل.

ويقول الشدياق في «أخبار الأعيان»: إن أماجور التركي قدم، ومعه الأمير النعمان بن عام التنوخي، ابن عم الأمير هاني، وكان قد ذهب إلى بغداد سنة ٨٦٣ لطلب العلم على الجاحظ والمبرد وغيرهما. فلقي أماجور التركي أصحاب ابن شيخ وعليهم ابنه وفيهم الأمير إبراهيم، فامتثلا فقتل الابن وانهزم أصحابه.

ويقال إن الأمير إبراهيم قد هرب واختبأ، ثم أمّنه الأمير النعمان، فبقي في بيته حتى مات. وبقيام الأمير النعمان في لبنان تبدأ الإمارة التنوخية الوراثية المعترف بها من خليفة بغداد.

الاهتمام العباسي بلبنان

لقد لخّص البلاذري الاهتمام العباسي بلبنان بالآتي: «لما ولّي أبو جعفر المنصور، تتبّع حصون السواحل ومدنها فعمّرها وحصّنها، وبنى ما احتاج إلى البناء منها. ثم لمّا استخلف المهدي، استمرّ ما كان بقي من المدن والحصون، وزاد في شحنها. قال معاوية بن عمرو وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هارون في الغزو، ونفاذ بصيرته في الجهاد أمراً عظيماً، أقام من الصناعة ما لم تقم قبله، وقسّم الأموال في الثغور والسواحل، وأشجن الروم وقمعهم. وأمر المتوكّل على الله بترتيب المراكب في جميع السواحل وأن تشحن بالمقاتلة».

وإذا أردنا المقارنة بين سياسة الأمويّين والعباسيّين تجاه لبنان، فإنه جليّ أن الأمويين أسهموا في تكوين مقدّمية الموارنة. ومقابل ذلك أسهم العباسيون في

تكوين الإمارة التنوخية. ولكن لبنان لم يكن عبارة عن هاتين الكتلتين، فقد توزعت القبائل المهاجرة في الشمال والجنوب والبقاع. وبرزت بيروت تلعب دوراً رئيسياً على الساحل اللبناني، فاستقطبت كثيراً من سكان المناطق الداخلية للقيام بالجهاد، وذلك بالمرابطة في وجه الأسطول البيزنطي وغزواته ومنع السكان الجبليين من الاتصال بالبيزنطيين.

أما من الناحية الدينية فيبدو أن المسيحية ظلّت بين ثلاثة مذاهب هي: المارونية في الشمال الجبلي من لبنان، والملكية في السواحل شمالي بيروت واليعاقبة في السواحل والداخل. ولعلّ وجود الملكية في السواحل شمالي بيروت كان شجّع على مجيء الروم من وقت لآخر لمهاجمة بعض المناطق اللبنانية. وظلّ العباسيون يطلقون كلمة أنباط على مجموعة المسيحيين في لبنان[1]. وأما المسلمون فكانت أكثريتهم قد أصبحت على مذهب الأوزاعي. ويظنّ أن بعض سكان لبنان الجنوبي ووادي التيم كانوا على مذهب التشييع. وقد مشوا مع أبي العميطر في ثورته لأنه المهدي ولأنه ابن شيخي صفّين، أي أن له انتساباً إلى الإمام علي. هذا بالإضافة إلى الجماعات اليهودية المقيمة في المدن منذ العهد الأموي.

السلفيّون والعذريون

يتّضح من التراجم أن بيروت بدأت تشهد خلال العقد الأخير من العصر الأموي وأوائل العصر العباسي تفاعل حركة فكرية تمثّلت بجماعة المعتزلة الذين عرفوا بالقدريّة، فقد نزلها بعضهم وكانوا يبثّون فكرهم بين أهل بيروت من المتردّدين على مسجدها الجامع، كما فعل غيلان. وكان السلفيون ينشرون فكرهم من دون صدام بين الفريقين. ويبدو أن حركة القدريّين تفاقمت في بيروت حتى طالت الظنون الإمام الأوزاعي نفسه، ممّا دفع بإسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، الذي نزل بيروت مرابطاً في أيام مروان بن محمد، لأن يغضب ويقول للإمام الأوزاعي حين رآه وقال له: «إني أراكم من هؤلاء القوم، يعني القدرية،

(١) تسريح الأبصار، لامنس.

فلعلك منهم»، ممّا حدا بالإمام الأوزاعي لأن يقسم: «لا والله ما أنا منهم».

وكان الإمام الأوزاعي متشدداً في مذهبه السلفي، مناوئاً للقدرية الذين لا يؤمنون بالقدر، ويروي البخاري في تاريخه أن الرحبيّ الحمصيّ لقي الأوزاعي، فمد يده ليصافحه، فأبى الأوزاعي مصافحته وقال له: لو كانت الدنيا كانت المقاربة، ولكنه الدين. يقول لأنه كان قدرياً، قال رسول الله «ستة لعنتهم ولعنهم الله وكل نبي مجاب الدعوة: الزائد في كتاب الله والمكذب بقدر الله».

من هو الإمام الأوزاعي؟

إن سيرة الإمام الأوزاعي في كثير من جوانبها تعتبر جزءاً مهماً من تاريخ لبنان. وإن كان الإمام الأوزاعي من مواليد بعلبك، فإن علمه وفكره نضجا في بيروت وفيها كانت مدرسته الفقهية وبين جنباتها كانت مواقفه وسيرته، وبديوانها اكتتب وفيها رابط، وفيها توفي.

إنه عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الذي يرجع بنسبه إلى عرب الجنوب، ولد في بعلبك سنة ٧٠٧م حيث أمضى طفولته يتيم الأب ثم انتقل وهو بعد يافع مع أمه إلى بيروت فتعلّم في مدارسها ثم عمل في الدواوين، ثم حارب مجنداً في الجيش الأموي في اليمامة، ثم أرتاد بعد الجندية مراكز العلم الكبرى في عصره في البصرة ومناطق العراق والحجاز واليمن ودمشق. وذاع صيته في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ولم تقتصر شهرته على معرفته بالفقه والحديث إنّما اشتهر بسموّ أخلاقه وفضل مناقبه وشدّة تقشّفه. وقد لقّب بإمام أهل الشام، وكانت سلطته تقوى سلطة الخليفة، على حد قول ابن خلكان.

وعندما مرّ المنصور ببيروت سمع الأوزاعي يخطب في المسجد فأعجب به كثيراً وأحبّه. وقد استشاره بعد ذلك في بعض الأمور. وعندما سمع الأوزاعي مرّة أن الخليفة تردد في افتداء بعض أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيدي الروم بعث إليه برسالة عن لسانهم يطلب فيها إليه افتداءهم. وعندما تسلّم الخليفة الرسالة استجاب فوراً. وممّا يدل على انقطاع الأوزاعي إلى العلم وشدّة شغفه به، ما رواه

حفيده عن لسانه فقال: «من تعلّم باباً من العلم كان أفضل من عبادة حول يصام نهاره ويقام ليله».

إن النظرة اللبنانية الشاملة والروح اللبنانية السمحة تتجسّدان في سماحة روح الأوزاعي وفي نبل أخلاقه. فإنه يشدّد على فكرة العدل والرفق والعطف عندما كان الأمر يتعلّق بالرعايا من غير المسلمين. وكان يحبّ البلاد التي يعيش فيها ويعتزّ بمجدها الغابر. وإننا لا نعرف فقيهاً من فقهاء المسلمين أظهر من نبل العاطفة ما أظهره الأوزاعي في دعوته إلى الإخوّة الإنسانية. فإن معاصره العراقي مثلاً، أبا حنيفة، مؤسّس المذهب الحنفي الذي يعتبر من أفضل المذاهب الإسلامية سماحة وتحرّراً، قد يتغاضى عن قطع النخيل وغيره من الأشجار عند مقاتلة المشركين. ولكن الأوزاعي الفقيه اللبناني يمنع عملاً كهذا. فقد كان أبو حنيفة يحرّم أكل اللحم إذا كان من ذبح مرتدّ، ولو كان مرتدّاً غير مسلم، ولكنّ الأوزاعي كان يحلّله. وقد كان أبو حنيفة يعتبر أرض الرجل الذي دخل في الإسلام، إذا كان هذا الرجل يقطن بلاداً وقعت فيها الحرب بين المسلمين والمشركين، داخلة ضمن الغنائم. أما الأوزاعي فكان لا يقرّ هذا الرأي، ولا سيّما إذا كان الداخل في الإسلام من النصارى أو اليهود. وفي رأي الأوزاعي أنه إذا حارب غير مسلم في صفوف المسلمين فإنّ حصّته من المغانم يجب أن تكون حصّة المسلم.

وما كان الإمام الأوزاعي ليقرّ بقتل الرهائن وهو ممّن يقولون بأن نكث العهد يجب ألاّ يقابل بنكث العهد بل بالمروءة والشهامة. وقد شاع مذهب الأوزاعي في سورية ولبنان حيث ظلّ الفقهاء والقضاة يأخذون به مدّة قرنين من الزمن إلى أن حلّ محلّه المذهبان الحنفي والشافعي. ومن لبنان وسوريا انتشر مذهب الأوزاعي إلى المغرب والأندلس حيث ظلّ الفقهاء يأخذون به مدّة أربعين سنة. ثمّ حلّ محلّه المذهب المالكي. ولا شكّ في أن روح التحرّر والتساهل التي تظهر جليّة في مذهب الأوزاعي كانت من العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في الأندلس المسيحية.

وفي يوم قارس من أيام شتاء ٧٧٤م. دخل الأوزاعي غرفة الحمام حيث

وضعت له زوجته موقداً فيه جمر فحم لتدفىء الغرفة، ولكن يظهر أن غاز المونوكسيد كان قوياً في الغرفة فمات خنقاً. وقد وجدته زوجته ملقى على الأرض ووجهه نحو القبلة. أما الثروة التي خلّفها فقد كانت سبعة دنانير. وقد دفن عند كثبان الرمل عند الشاطىءجنوبي بيروت. ومقامه هو أحد المقامات القليلة التي لا تزال قائمة إلى يومنا هذا في مدينة بيروت، حيث يقال إن جملة من مشاهير المسلمين، بما فيهم بعض الصحابة قد دفنوا فيها. ويذكر أن مقام الأوزاعي في بيروت هو الأثر الإسلامي الوحيد على طول الساحل اللبناني من القرن الثامن الميلادي.

ومن مؤلفات الإمام الأوزاعي «كتاب السنن» و«كتاب المسائل في الفقه» و«كتاب السير» الذي عالج فيه أحكام الجهاد والقتال.

وسئل أمية بن يزيد ذات يوم: أين الأوزاعي من مكحول الدمشقي؟

فأجاب: هو عندنا أرفع من مكحول، إنه قد جمع العلم والعبادة والقول الحق.

الفصل السادس

السكان والإسكان

كان سكان لبنان قبيل الفتح العربي مزيجاً من شعوب مختلفة، أما القاعدة الأساسية فكانت من بقايا الكنعانيين (الفينيقيّين) والآراميين، وقد عرفوا فيما بعد باسم موحّد لهما هو السريان نسبة إلى سورية. وقد أطلق العرب عليهم اسم الأنباط بعد فتح البلاد بالرغم من أن الأنباط من حيث الأصل يختلفون عنهم. ويضاف إلى هذه القاعدة السريانية الكبرى بقايا من العناصر اليونانية والرومانية التي استوطنت لبنان بحكم السيطرة اليونانية والرومانية. ولكن هذه الأقلية من اليونان والرومان لم تكن من سكان القرى بل كانت تتمركز إجمالاً في المدن الساحلية.

وإلى جانب هؤلاء كان هناك جماعات كثيرة من الأرمن استوطنت في المدن اللبنانية منذ احتلال الأرمن للبلاد قبيل الميلاد وكذلك خدم الأرمن في الجيوش البيزنطية في أنحاء سورية ولبنان.

الفرس

يضاف إلى هذه المجموعات البشرية في لبنان العنصر الفارسي الذي قدم إلى لبنان قبل الحروب الفارسية البيزنطية في الربع الأول من القرن السابع الميلادي وأثناء هذه الحروب.

وعندما انفرد معاوية بالخلافة سنة ٤١ هـ. كان يضع نصب عينيه الاهتمام بتدعيم المدن الساحلية وتكثيف سكانها بعد أن هجرها كثير من الروم والتحقوا بأبناء جلدتهم، كما قام هو وأخوه يزيد بإجلاء الكثير منهم من البلاد. لذلك عمد إلى إرسال جماعة من الفرس والأساورة ليسكنوا الساحل فنزل الفرس في ساحل الشام إضافة إلى قوم من الأقباط والجراجمة والأنباط والزُّط وغيرهم من الأحباش والبربر.

وعن المرحلة التي نزل فيها الفرس إلى ساحل الشام يقول ابن واضح اليعقوبي: «. . . وبعلبك وأهلها قوم من الفرس وفي أطرافها قوم من اليمن وجبل

الجليل وأهلها قوم من عاملة... وصيدا بها قوم من قريش ومن اليمن. ولجُنْد دمشق في الكور على الساحل: كورة عرقة، ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة، وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة. ومدينة طرابلس وأهلها قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلها إليها، ولهم ميناء عجيب يحتمل ألف مركب. وجبيل وصيدا وبيروت، وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس، نقلهم إليها معاوية بن أبي سفيان».

ولم يوضح اليعقوبي تاريخ نقل الفرس إلى ساحل الشام، ولكن البلاذري يضع تاريخاً لذلك عند حديثه عن أنطاكية فيقول «إن معاوية نقل إليها في سنة ٤٢هـ جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ومن المصريين».

ويذكر في موضع آخر عن أحد الأنطاكيين أن معاوية نقل من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور وعكا وغيرها سنة ٤٢هـ. ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية في تلك السنة أو قبلها أو بعدها بسنة.

يشار إلى أن الفرس كانوا في بلاد الشام ومدنه الداخلية قبل حركة الفتح الإسلامي، وهذا ما ذكره البلاذري وابن عساكر عن فتح بعلبك ونص كتاب الصلح الذي يؤكد على وجود العنصر الفارسي فيها إلى جانب الروم والعرب الأنباط.

وبطبيعة الحال لم يكن الفرس ليشكلوا الأغلبية الساحقة من السكان في المدن التي نُقلوا إليها، بل نزلوا إلى جانب عناصر أخرى بقيت في تلك المدن أو كانت فيها من الروم واليهود والقبط والأنباط فضلاً عن العرب.. وذكر البلاذري عن محدِّث من مدينة صور هو هشام بن الليث الصوري أن مشايخه قالوا: «نزلنا صور والسواحل، وبها جند من العرب وخلق من الروم، ثم نزع إلينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا، وكذلك جميع سواحل الشام».

ويبدو أن العرب كانوا يخشون في بادىء الأمر الإقامة في الموانىء والمدن الساحلية الشامية التي كانت هدفاً لغارات البيزنطيين، ولذا نجد معاوية يتبع سياسة إقطاع الأراضي ليس لتكوين طبقة من المزارعين، بل لتدعيم شأن المحاربين

المرابطين في الثغور الخطرة، فأغرى العرب بتملك الأراضي ليحلّ مشكلة إسكان الساحل.

وكان عثمان قد أصدر تعليماته إلى معاوية يأمره فيها «بتحصين السواحل وشحنها وإقطاع يُنزله إياها قطائع ففعل»[1] ولكن العرب لم يتحمّسوا في البداية لهذه الإغراءات ولذلك نرى معاوية يلجأ إلى الاستعانة بغير العرب ليعمرّوا المدن الساحلية فيتّجه إلى استقدام الفرس من الداخل وإنزالهم في الساحل.

الأقباط

تفيد المعلومات التاريخية عن مشاركة الأقباط العملية إلى جانب المسلمين في غزواتهم ومعاركهم البحرية ضد البيزنطيين وإسهامهم الفعّال في صناعة المراكب وفي قيادتها أثناء القتال على حدّ سواء.

وروى سعيد بن منصور المتوفى سنة ٢٢٧هـ أن القبط كانوا يشاركون المسلمين في غزواتهم البحرية إلى القسطنطينية سنة ٩٧هـ، وأن مركباً لهم وصل إلى ثغر بيروت بعد سنة ٩٩هـ، وقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يُمنحوا المركب بكل ما فيه من متاع وسلاح لصدق جهادهم ضدّ الروم، على أن يعطوا الخمس إلى بيت المال. وهذا تصديق للحديث الذي يُروى عن النبي محمد أنه قال: الله الله في قبط مصر، فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وإخواناً في سبيل الله».

وكانت جاليات قبطية لا تزال تسكن مدن ساحل الشام حتى منتصف القرن الثاني الهجري (الثامن ميلادي) على الأقل، بدليل مشاركتهم في تشييع جنازة الإمام الأوزاعي المتوفي سنة٧٧٤م. مع المسلمين واليهود والنصارى.

الأيطوريون

بحسب المؤرخين هناك مجموعة من القبائل العربية القديمة كالأيطوريين

---

(١) فتوح البلدان، عبد العزيز الدوري.

الذين اتخذوا مدينة عنجر عاصمة لهم وبسطوا حكمهم مدة طويلة على جنوبي لبنان والبقاع وعكار وطرابلس وبعض المناطق الجبلية، وظلّوا أسياداً في لبنان حتى انتزع الحكم منهم القائد الروماني بومبيوس حين فتح لبنان.

الأنباط

أما الأنباط أو النبط فهم من السريان النصارى، وكانت دولتهم في البدء من جنوبي الأردن، ثم توسعوا شمالاً فبسطوا حكمهم على جنوبي لبنان، ومن آثارهم الإسمية: النبطية في الجنوب. وقد اشتهروا بأعمال الريّ والحفر والفلاحة، حتى أن العرب فيما بعد كتبوا كثيراً عن فنون الفلاحة النبطية. وكانوا ينتشرون في نواحي بلاد الشام وخاصة في المناطق الزراعية، وكان جمعهم موفوراً في البقاع ونواحي بعلبك وداخل المدينة أيضاً، وهذا ما يثبته نصّ كتاب الصلح الذي عقده أبو عبيدة الجراح مع أهل المدينة.

ونظراً لشهرتهم وانتشارهم، فقد عمّم العرب اسم الأنباط على مجموعة السكان القديمة في لبنان وسورية، فجعلوا كل وطني نبطياً.

وقد عملوا عيوناً لأبي عبيدة فكانوا يأتون إليه بأخبار الروم وحشودهم، وقد أخبر أبو عبيدة خالد بن الوليد أن «هؤلاء جواسيسنا من أنباط الشام قد جاؤوا إلي خبّروني أن أهل بعلبك في عشرين ألفاً...».

كما كان أبو عبيدة يأتمن الأنباط على البريد، فحتى آراء الكتابة إلى الخليفة عمر عن الوضع العسكري في بلاد الشام أرسل الكتاب في فَيْج سريع من أنباط أهل الشام.

قبيلة عاملة

هناك أيضاً بعض القبائل العربية، اليمنية الأصل كقبيلة عاملة التي أقامت في جنوبي لبنان وأعطت اسمها لتلك المنطقة: جبل عاملة أو جبل عامل وهوالاسم الحالي للمنطقة «جبل عامل» التي سكنتها قبيلة عاملة. ويقال أن بني عاملة هم أيضاً من القبائل اليمانية التي خرجت إلى الشام ونزلوا بالقرب من دمشق في جبل

هناك يعرف بجبل عاملة.

ويذكر اليعقوبي كندة وكنانة ولخم وجذام وعاملة أنها قامت في نواحي فلسطين وفي غربي الشام.

الزطّ

في سنة ٤٩ هـ نقل معاوية قوماً من زُطّ البصرة والسيابية وأنزل بعضهم في أنطاكية، وقد أطلق اسمهم على المحلة التي نزلوا فيها، فعرفت بمحلّة الزُطّ. وانتشروا فيما بعد في نواحي أنطاكية، فكان في يوقا (من أعمال أنطاكية) قوم من أولادهم يعرفون بالزطّ وهم من الهنود.

بدوره أيضاً طبق الوليد بن عبد الملك سياسة معاوية، فنقل إلى أنطاكية قوماً من الزطّ السند في أيامه (٨٦ ـ ٩٦هـ) ممّن حملهم محمد بن القاسم الثقفي إلى الشام فنقلهم الوليد إلى أنطاكية مع جواميسهم.

وخلاصة القول أن سكان لبنان قبيل الفتح العربي كانوا مزيجاً من أنواع وأعراق عدة.

الفصل السابع

الحياة الفكرية في لبنان وانتشار اللغة العربية

إن انتشار الإسلام اقتضى قروناً لا عشرات السنين، فالخلفاء، الأمويون، باستثناء عمر بن عبد العزيز، لم يهتموا كثيراً بأن يغير الناس دينهم فيعتنقوا الإسلام، لا سيّما الجماعات التي تملك الأراضي وذلك لأسباب اقتصادية معروفة.

ويشار إلى أن الأمم التي شملها الفتح الإسلامي أبدت من المقاومة اللغوية ما لم تبده في المقاومة الحربية أو الدينية. ولا شك في أن انتصار القرآن على أنه كتاب الإسلام سبق انتصار العربية كلغة محكية بين الناس. فقد كان اللغة العربية، التي كانت لغة قوم بدائيين وعلى شيء يسير من الحضارة أن تسمو أولاً وأن ترتقي علمياً وفكرياً قبل أن تفرض نفسها على الشعوب التي شملها الفتح العربي. وقد كان لحركة الترجمة من الإغريقية إلى العربية عن طريق السريانية أيام الرشيد والمأمون في بغداد أكبر أثر في تطوير العربية وفي جعلها اللغة السائدة والشائعة. ولم يتمّ اعتماد اللغة العربية كلغة تتكلمها الشعوب المفتوحة إلا عند منصرم العهد العباسي، أي في أوائل القرن الثالث عشر.

وهذا الانتشار لا يصدق على جبل لبنان، لأنه ظلّ قروناً، بعد إسلام سائر الأقطار وتعريبها، مسيحياً في دينه وسريانياً في لغته. وقد كان أبوالفرج العبري المتوفى سنة ١٢٨٦ وهو الأسقف اليعقوبي في الموصل، يعتبر السريانية لغة لبنان.

وفي العام ١٦٨٩ أورد الرحالة الفرنسي جان دو لاروك (١٦٦١ ـ ١٧٤٥) أن لغة قرية «بان» في لبنان الشمالي كانت السريانية، وأنه شاهد في بشري وحصرون وجوارهما عدداً من الرجال والنساء يتكلمون السريانية بلهجتها الشرقية أو الكلدانية، وإن تكن العربية، غلبت على اللسان العامي في مختلف أرجاء لبنان.

وقال جواد بولس إن «اللغة السريانية، وهي لغة آرامية مسيحية، غدت اللغة الدينية والأدبية الشائعة للطائفة المارونية». ولم يبتعد الدكتور فيليب حتي عن هذا

الاقتناع عندما قال في «تاريخ العرب»: «... غير أن البقاع التي لم تكن مطروقة في هذين القطرين (العراق وسورية)، كجبال لبنان الشرقية والغربية، لم تتخلَّ عن لغتها بسهولة، بل كافحت كثيراً في سبيل الاحتفاظ بها إلى عصور متأخّرة». وسوّغ المطران يوسف الدبس لنفسه أن يكتب في نهاية القرن التاسع عشر «حروف لغتنا السريانية».

وهكذا، فإن اللغة السريانية كانت سائدة في وسط الشعب بالإضافة إلى اليونانية أو الرومية (اللغة البيزنطية الرسمية) في وسط الطبقة الحاكمة. أما العربية والفارسية فكانتا محصورتين في أوساط الجاليات الفارسية والقبائل العربية[١].

منارة ثقافية

لقد كان لبنان ولم يزل منارة ثقافية، إذ خرّج العديد من الأدباء والمفكرين والشعراء كما اجتذب إليه الشعراء والأدباء العرب.

وقبل الدخول في تفصيل الأدباء اللبنانيين نشير إلى بعض الشعراء العرب الذين زاروا لبنان ومنهم المتنبي وأبو العلاء المعري.

ونعلم من شعر المتنبي أنه مرّ بلبنان ومكث فيه وقتاً في طرابلس وبعلبك. وجاء في قصيدة للمتنبي يمدح بها أبا علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب، وهو من أعيان لبنان:

بيني وبين أبي علي ... شمُّ الجبال، ومثلهنَّ رجاء
وعقاب لبنان وكيف بقطعها ... وهو الشتاء، وصيفهنَّ شتاء
كبس الثلوج بها عليّ مسالكي ... فكأنها ببياضها سوداء
في خطه من كل قلب شهوة ... حتى كأن مداده الأهواء
ولكلِ عين قرة في قربه ... حتى كأن مغيبه الأقذاء

وزار لبنان أيضاً أبو العلاء المعري حوالي عام ١٠٠١، ومكث في طرابلس

(١) لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، علي مكّي.

مدة ينتفع بما في مكتبتها التي كانت بحوزة آل عامر. ولولا شهرة هذه المكتبة وسعتها لما غادر رهين المحبسين قريته معرة النعمان ليأتي إلى طرابلس ثم يعود إلى قريته وقد روى ظمأه الثقافي. ولا شكّ في أن مكتبة طرابلس كانت تناسب وجهته الثقافية المائلة إلى التصوف والعقلانية والاطلاع على مختلف المذاهب الروحية.

وكان من الطبيعي أن ينطلق الفكر اللبناني المعبّر عنه باللغة العربية من دون السواحل وبعلبك حيث وجدت اللغة العربية مكانة لها، في وقت استمرّت فيه اللغة السريانية مسيطرة في جبال لبنان. حتى أن السريانية دخلت حرم الخلافة الأموية والعباسية، إذ اضطرّ الخلفاء إلى قبول الترجمات السريانية من قبل بعض مترجميهم السريان مثل قسطا بن لوقا وتيوفيلس الرهاوي منجّم المهدي، وهما من مدرستي الرها والنصّيبين السريانيتين، فمن كان هؤلاء؟

قسطا بن لوقا

أصله بعلبكي ونصراني المذهب، وكان مفخرة بلاده وعصره حيث أتقن الإغريقية والسريانية والعربية. سافر إلى بلاد الروم في طلب الكتب والمخطوطات ثم استقرّ به المقام في بغداد. كان طبيباً وفيلسوفاً وعالماً بالفلك والرياضيات، إنما اشتهر أوّلاً كمترجم من اللغة الإغريقية فنقل كتباً إغريقية في الفلسفة والرياضيات إلى العربية، وألّف ٦٩ كتاباً وترجم ما لا يقلّ عن ١٧ كتاباً ومن أبرز مؤلفاته: شرح وتعليق على إقليدس، الأسطرلاب الكروي، المرايا المحرقة، الفلاحة اليونانية ورسالة في الفرق بين النفس والروح ترجمت إلى اللاتينية في القرون الوسطى، كتاب الروائح وعللها، كتاب المروحة وأسباب الريح، كتاب الأغذية، كتاب النبض ومعرفة الحميات، كتاب علّة موت الفجأة، المدخل إلى علم الهندسة، كتاب الندم والرؤيا وكتاب حساب التلاقي على طريق الجبر والمقابلة، وغيرها من المؤلفات.

إنتقل قسطا بن لوقا في شيخوخته إلى أرمينية، ويحتمل أن ذلك بدعوة من ملك يدعى سنحاريب تعرّف عليه قسطا خلال زيارته لخليفة بغداد. وتوفي في

أرمينيا نحو سنة٩١٢ حيث بنى له الملك قبراً فخماً يليق بمكانته العلمية.

تيوفيلس الرهاوي

هو تيوفيلس بن توما الرهاوي، رئيس منجمي الخليفة المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥م). وكان على مذهب موارنة جبل لبنان وكان منجّماً بارعاً بحيث اختاره خليفة بغداد ليكون المنجّم الأول في قصره.

نقل الإلياذة وغيرها من مؤلفات هوميروس من اليونانية إلى السريانيّة بغاية الفصاحة، كما نقل بعض مؤلفات أرسطو. وألّف كتاباً باللغة السريانية طعن فيه بمذهب اليعاقبة ذاع صيته في عصر المهدي. وصحّت نبوءته بشأن موته هو والمهدي في عام واحد (٧٨٥م).

قيس الماروني

عاش قيس الماروني في أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر، وعرفه العرب بهذا الاسم. ألف كتاباً ضخماً في التاريخ العام من ابتداء الخليقة إلى نهاية خلافة المكتفي (٩٠٢ ـ ٩٠٨)، وذكر فيه الأنبياء والكتب والمدن والأمم وأخبار ملوك الروم وغيرهم. وتأتي أهمية هذا الكتاب كونه أوّل كتاب لماروني في اللغة العربية. ولكن شيئاً لم يصل من هذا الكتاب باستثناء ما رواه المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف».

عبد المحسن الصوري

ولد أبو محمد عبد المحسن بن محمد بن أحمد بن غالب بن غلبون الصوري في صور سنة (٩٥٠م). نظم الشعر في صباه واشتهر به واتّخذه وسيلة لكسب عيشه. إتصل بالحمدانيين في حلب ومدح من أمرائهم مبارك الدولة ومنير الدولة، كما اتصل بوالي صيدا ابن الشيخ وعشيرته. ثم اتصل ببكجور والي حمص ودمشق (٩٧٨ ـ ٩٨٩) وبنجوتكين أمير الجيوش الشامية (٩٩٦) وببشارة الأخشيدي أمير دمشق وطبريا (٩٩٨) وبأبي الجيش حامد بن ملحم الذي لازمه ملازمة طويلة ولقي في عهده حسن الرعاية وطيب العيش ونال منه الجوائز الثمينة، وهو والي

دمشق من قبل الحاكم بأمر الله الفاطمي (١٠٠٨).

ومدح الصوري في آخر حياته الخليفة الحاكم (١٠٢١). وفي السنوات العشر الأخيرة من حياته لازم مسقط رأسه صور وعاش بين أهله وأصحابه حتى وافته المنية سنة ١٠٢٨م.

أكثر عبد المحسن الصوري من الترحال، فتنقل بين صيدا وبيروت وطرابلس وحلب ودمشق والرملة وطبريا وعكا. ولكنه تجنب السفر الطويل وكان يتشوق خصوصاً لزيارة مصر، إلا أن بعد المسافة ومشقّة السفر أثنتاه عن تنفيذ أمنيته.

وكان الصوري شيعياً متعصّباً لعلي وآل البيت وخصّ شعره المدحي بالشيعة من الحمدانيين والفاطميين. وترك ديواناً مخطوطاً يحتوي على ما يزيد على خمسة آلاف بيت، في ٢٣٧ صفحة من القطع الوسط، وكتب النسخة بخط جميل وواضح بقلم الجواد بن عبد الحميد النجفي في بغداد.

ولم يكن من أصحاب المطولات إنما جاء شعره قصير النفس في الإجمال. ومن أبياته التي وردت في «معجم الأعلام» لخير الدين الزركلي:

بالذي ألهم تعذيبي ثناياك العذابا ما الذي قالته عيناك لقلبي فأجابا

المطران توما الكفرطابي

هو مطران الموارنة على كرسي كفرطاب، البلدة السورية الواقعة بين معرة النعمان وشيرز على طريق حلب ـ حماة. وكانت رعايته تشمل الموارنة حتى نهر العاصي. عاش في القرن الحادي عشر وألف كتاب «المقالات العشر» باللغة العربية، وقد بقي منه إلى الآن ثلاث نسخ مكتوبة بالكرشوني ومحفوظة في مكتبة الفاتيكان والمكتبة الوطنية في باريس ومكتبة القديسين بطرس وبولس في عشقوت.

إعتبر المطران في «المقالات العشر» أن يسوع المسيح إله كامل وإنسان كامل يشبهنا في كل شيء ما عدا الخطيئة. له مشيئة واحدة لأنه لا يمكن أن تكون له مشيئتان متناقضتان واحدة إلهية وأخرى إنسانية. ومثل هذه الأقوال جعلت بعض الموارنة ينفون عنه صفة المارونية. واتّهم بأنه أفسد كِتاب «الهدى» بما أضاف إليه

من الزيادات الناشئة عن عقيدته التي أخذها عن سعيد بن البطريق[1].

أحمد بن مفلح

ولد أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح في طرابلس سنة ١٠٨٠م وكان شيعياً. سجنه صاحب دمشق بوري بن طغتكين (١١٢٨ ـ ١١٣٢)، بسبب هجائه ثم أطلق سراحه ونفاه من البلد. إلا أن إسماعيل بوري سمح له بالعودة، ولكنه سرعان ما أغضبه واضطرّ إلى الهرب والاختفاء مدّة وعاش في حماه وحلب حيث توفي في أيلول من العام ١١٥٣م.

ومن أهم قصائد الشاعر قصيدته «التتريَّة» التي تحتوي على واحد وتسعين بيتاً قيلت لعبده «تتر» الذي أرسله بهدايا إلى الشريف الموسوي، فأبقاه عنده وقد أبدّى في القصيدة استعداده لترك التشيّع والعدول إلى السنّة ليستعيده، وكان هذا الشاعر يتمتع بشخصية فذّة، حاول أن يعيش بحسب مبادئه ومعتقداته تحت حكم سنّي، فلقي السجن والاضطهاد والنفي.

(١) تاريخ الطائفة المارونية، الدويهي.

ملحق

الخلفاء العرب

بني أمية:

إن الخلفاء من بني سفيان هم فرع من بني أمية.

أمية هو ابن عم جد النبي محمد.

أبو سفيان

معاوية الأول (٦٦١ ـ ٦٨٠م)

يزيد الأول (٦٨٠ ـ ٦٨٣)

معاوية الثاني (٦٨٣ ـ ٦٨٤)

خلفاء آل مروان:

كذلك الخلفاء من آل مروان هم فرع من بني أمية:

مروان (٦٨٤ ـ ٦٨٥م)

عبد الملك بن مروان (٦٨٥ ـ ٧٠٥)

الوليد الأول (٧٠٥ ـ ٧١٥)

سليمان (٧١٥ ـ ٧١٧)

عمر بن عبد العزيز الثاني (٧١٧ ـ ٧٢٠)

يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤م)

هشام (٧٢٤ ـ ٧٤٣)

الوليد الثاني (٧٤٣ ـ ٧٤٤)

يزيد الثالث (٧٤٤)

إبراهيم (٧٤٤)

الخلفاء العباسيون:

مؤسس الدولة العباسية هو أبو العباس الملقّب بالسفاح.

السفاح (٧٥٠ ـ ٧٥٤)

المنصور (٧٥٤ ـ ٧٧٥)

المهدي (٧٧٥ ـ ٧٨٥)

الهادي (٧٨٥ ـ ٧٨٦)

الرشيد (٧٨٦ ـ ٨٠٩)

الأمين (٨٠٩ ـ ٨١٣)

المأمون (٨١٣ ـ ٨٣٣)

الواثق (٨٣٣ ـ ٨٤٢)

المتوكل (٨٤٢ ـ ٧٦١)

المنتصر (٨٦١ ـ ٨٦٢)

المستعين (٨٦٢ ـ ٨٦٦)

المعتزّ (٨٦٦ ـ ٨٦٩)

المهتدي(٨٦٩ ـ ٨٧٠)

المعتمد (٨٧٠ ـ ٨٩٢)

أما خلفاء بغداد الذين كان الأتراك يتحكّمون بهم فهم:

المعتضد (٨٩٦ ـ ٩٠٢)

المكتفي (٩٠٢ ـ ٩٠٨)

المقتدر (٩٠٨ ـ٩٣٢)

القاهر (٩٣٢ ـ ٩٣٤)

الراضي (٩٣٤ ـ ٩٤٠)

المتقي (٩٤٠ ـ ٩٤٤)

المستكفي (٩٤٤ ـ ٩٤٦)

والخلفاء العباسيون في الحكم البويهي هم أربعة. والأسرة البويهية هي أسرة

فارسية الأصل تدّعي أنها من سلالة ملوكية ترجع بنسبها إلى ما قبل الإسلام، واستولت هذه الأسرة على بغداد وعلى جزء كبير من المملكة التي كانت تدين إلى بغداد بالولاء.

والخلفاء هم:

المطيع (٩٤٦ ـ ٩٧٤)

الطائع (٩٧٤ ـ ٩٩١)

القادر (٩٩١ ـ ١٠٣١)

القائم (١٠٣١ ـ ١٠٧٥)

أما الخلفاء العباسيون أثناء السيادة السلجوقية فهم:

المقتدي (١٠٧٥ ـ ١٠٩٤)

المستظهر (١٠٩٤ ـ ١١١٨)

المسترشد (١١١٨ ـ ١١٣٥)

الراشد (١١٣٥ ـ ١١٣٦)

المقتفي (١١٣٦ ـ ١١٦٠)

المستنجد (١١٦٠ ـ ١١٧٠)

المستضيع (١١٧٠ ـ ١١٨٠)

الناصر (١١٨٠ ـ ١٢٢٥)

الظاهر (١٢٢٥ ـ ١٢٢٦)

المستنصر (١٢٢٦ ـ ١٢٤٢)

المعتصم (١٢٤٢ ـ ١٢٥٨)

وكان سقوط الخلافة العباسية على يد هولاكو المغولي سنة ١٢٥٨

المراجع

تاريخ لبنان: الدكتور فيليب حتي. دار الثقافة.

تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري: الأب بطرس ضو. دار صيدون.

الموارنة صورة تاريخية: الدكتور كمال سليمان الصليبي ـ دار النهار.

مظاهر الحضارة اللبنانية زمن الدولة العباسية: وليم الخازن، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية.

بين العقل والنبي: أنور ياسين، وائل السيد، بهاء الدين سيف الله.

لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني: محمد علي مكي. دار النهار للنشر.

لبنان من الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية: الدكتور عمر عبد السلام تدمري. جرّوس برس ـ طرابلس.

المحتويات






Edito Creps
International